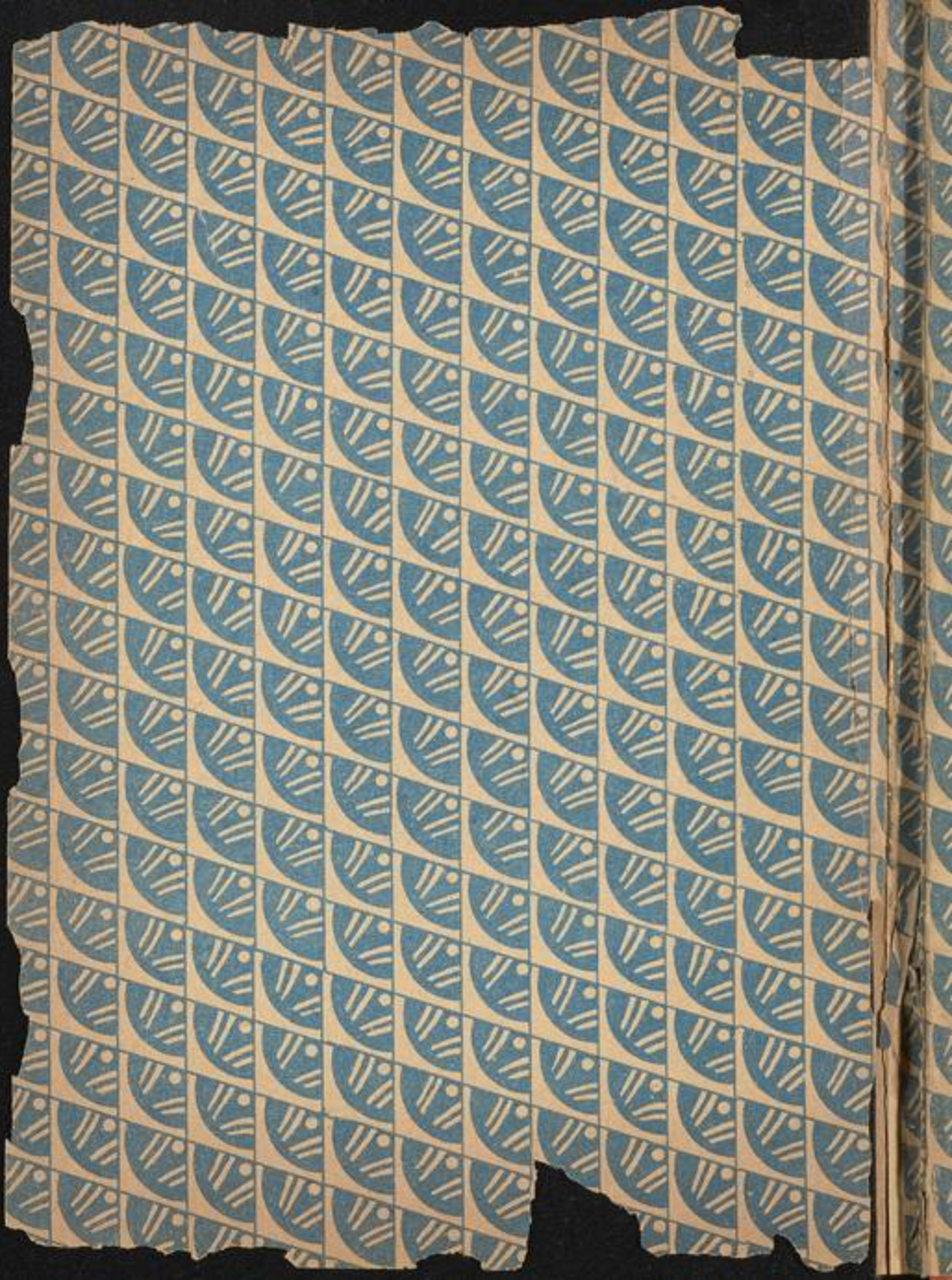


RE

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





893.7A291

BS

39141

مجلة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

أَبُونُوَّاسٍ

قصة حياته وشعره

عبد الرحمن صدقي

ALMULLUQ
VIKREVINU
YSAALI

مكتبة دار الجليل
دار الجليل الكائن في
عيسى البياضي وشركاه

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة

تقتصر في هذه المقدمة على كلمتين : عامة ، وخاصة
فأما الأولى ، فنقصد بها الى دفع ما وقع في بعض الأوهام من أن المعنى
المراد بمجموعة « أعلام الإسلام » أنها وقفٌ على الترجمة للهداة المصلحين
والفقهاء المجتهدين والأبطال المحاربين عن حوزة الدين . فالمجموعة فيما أرادته
اللجنة القائمة بنشرها هي في حقيقة الواقع أوسع من ذلك مجالاً وأرحب أفقاً .
فهي تشتمل على هؤلاء وعلى غير هؤلاء ، ممن تفيد الترجمة لحياتهم في تمثيل
وجه من وجوه الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي ، في بداوته وحضارته ،
وفي جده ولطوه ، وفي إيمانه وفلسفته ، حتى يخلص من ذلك كله صورةً كاملةً
صادقةً لما كانت عليه تلك العهود ، وما دخل عليها من آثار ، وما اختلف
عليها من أطوار ، فيتمثلها المطالع العصري على جليتها وحقيقتها ويتعرف
موجبات تقدمها ورقبها ودواعي تهورها وسقوطها

وأما الأخرى فنريد بها بيان ما توخينا في وضع هذا الكتاب ورسم
معامله وسياقة أجزائه . فقد توخينا في ذلك منهج التراجم الحديثة من إظهار

المرجم له شخصية حية موصول الرحم بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ،
يُسْتَبان هنا وهناك في سماته ومتصرفاته عِرْقُ الوراة وأثر البيئة . ولقد أفرغنا
وسعنا وبذلنا غاية جهدنا في الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حيناً ،
ومن ديوان أشعاره في معظم الأحيان ، حتى تهبنا لنا في ترجمته ما تهبنا من
تأسيس البنين وإقامة الأركان ، وملء العجوات بما يتفق مع منطق الحياة
دون أن يخلو قول من سندي له ، أو - على الأقل - من مصداقٍ على جواز
صحته ، من سير الحوادث في التاريخ العام ، وخصائص الشعوب في شتى
البلدان ، وطبائع الإنسان من حيث هو إنسان . فجاءت الترجمة لأبي نواس
- كما يراها القارئ - مطردة السياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياته من نشأته
الى وفاته مرحلة بعد مرحلة ، مع قلة المراجع في هذا الشأن وانصراف
الأقدمين الذين ترجموا له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الأكبر - مع
تصوير دنياه وحياته الخارجية - تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ،
ليتم التركيب وتوصل على قدر توفيقنا المعجزة ، فيعود أبو نواس بعد نيف
ومائة وألف سنة الى عالم الحياة بشراً سوياً ، كما بقي في عالم الأدب شاعراً
متدارس الشعر متعارف القدر عبقر يا .

غرام حبيدي

كان كل شيء يؤذن بسقوط البيت المالك الأموي وأقول نجمة ، بعد أن بلغت رقعة الملك في عهد بني مروان مثل الذي بلغته في أوج العظمة امبراطورية الرومان ، إذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقاً الى المغرب الأقصى والأندلس غرباً . ولقد كانت العاصفة تهب من كل أوبٍ وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون في خلفاء بني أمية إلا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التي يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب الساعة لنزع الطاعة ، وهنا قبائل العرب و بطونهم يجيش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقدون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعني غيرهم ، وفي غمار هذا جميعه المهيجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعاتهم إيقاد جمرها وتآريث نارها .

وفي هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالى الهمة مروان الثانى

وهو وقتئذ شيخ قد ناهز الستين . ولم يطل قراره في دَسْت الملك حتى انتفض أهلُ حمص وفلسطين ، فأبلى القائدُ المحنكُ في حربهم وأوقع بهم وأحمد ثأرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم وأجلى من كانوا منهم باليمن والحجاز إلى حضرموت ومن كانوا بالعراق إلى ما وراء دجلة .

وطلب مروان بن محمد بعضَ الراحة والاستجمام في قصره المحبب إليه في « حرّان » . ولكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحية فارس وخراسان ، فأنفذ الجندَ إلى ما وراء دجلة للشحنة والرباط .

كان من الأطراف التي أوفد إليها الخليفةُ الأمويُّ البعثَ لعظم شأنها من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالها جنديٌّ من غمار الجند شاءت المقادير أن يحفظ التاريخَ اسمه طوال ما غير من سوائف السنين ، وهو لا محالة حافظُه في مستأنف الأيام إلى أبد الأبدين ذلك الرجل هو « هاني » . وكلُّ فضله أن المقادير شاءت أن يكون أباً لابنه « الحسن بن هاني » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين . قدم « هاني » مع سائر أجناد فرقته إلى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم في ظاهر المدينة . وكانت المدينة تُعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من

النواحي المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب إليها . ولم يكن بين الجند من ارتاحت نفسه إلى هذه النقلة للذي وجدوه من حرّها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينة من منافع المياه الغليظة والسباخ هبوة داخنة متصاعدة ، يُقابلها الجبل الصخري الناصب المطل عليها ، فتنعقد في الجو وتزيده حرّاً ووخامة . فإذا أظلم الليل واستروحوا بعض البرد في جنحه ، لم تطمئن جنوبهم الى المضجع من لسب البعوض . فلا جرم يقبلون بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالغون .

ولم تلبث الحامية أن تفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها « هانى » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته في آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى وكانت سوق الأهواز تحترقها مياه مختلفة . وكان هذا كل ما يستحبه « هانى » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية من مناظر دمشق الشام - موطنه المحبب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصبة الإسلام . وهو أشد ما يكون انجذاباً إلى ذلك الوادى العظيم الذى يشق الأهواز ، لا يميل النظر إلى مائه الأحمر الزاخر من المدود ، ولا يضجر من جلبة النواعر والأرجاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالضفة القريبة ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقاً في تأمله ، يفوس بنظرته في طوامى نمرته حتى يبلغ العدو^(١) الأخرى .

في عصر يوم شديد الحر خرج « هانى » إلى النهر ، وأطال السير محاذياً

(١) الجانب والضفة

له التماساً للنسيم وارتباداً للخضرة . فكانت تتوالى على ناظره من أحد جانبيه
خائل أشجارٍ وشجيراتٍ موقراتٍ بالفاكهة والثمار ، ثم مزارعُ الأرز مغمورة
بالماء ، حتى إذا أبعده في المسير انبسطت على مدِّ البصر مغارسٌ تصب السكر
قائمة الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الرماح الخطيئة ، فإذا التفت
إلى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمرة ، امتلأت نفسه روعةً
وجلالاً ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجري في حدود مسيله كالخيل
الكمّت في مجاريها ، وموجهٌ يضرب ويغلي ويموج بعضه في بعض ، ويعلو
أثباجه^(١) من شدة فوره وجيشانه مثل اللغام^(٢) من قطع الزبد وطرائق
الرغوة ، وقد عجم عيججه وارتفع هديره .

ومضى « هاني » مأخوذاً يطوى الطريق ، وهو في شغلٍ عن المسافة التي
قطعها ، والتي يلزمه في العود أن يطوى أدرجها . حتى إذا انقطعت المزارع
وتبدل لعينه المنظر ، تاب إلى نفسه فرأى الشمس جانحةً للمغيب ، وطالغته
غير بعيد منه قريةٌ صغيرة على سفح ربوة . وأحسّ وقتئذ فقط بما أصابه من
التعب ، فمال إلى صخرة يستريح .

وإنه ليلتفت حوله إلى ألوان الأصيل على الموج وما ترسمه ظلال الصخور ،
إذا بعينه تأخذ شخصاً امرأةً على بعض الحجارة المتقدمة في الماء ، وهي مكبّة
على شيء تغسله في النهر ، وقد شمّرت عن ساقها وحسرت عن ذراعها ، وهما
يضيئان من نضاعة اللون والبياض . ولم تكن بالكثيرة اللحم ولكنها كانت

(١) أواسطه وأعالیه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

مكورة مبتلة ، بضّة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما أن شعرت المرأة بالقادم أزاحت متهدّلة الشعر عن جانبي وجهها ، ونظرت إلى ناحيته . وكان حسنها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزته أنه لا بد من أجناد الحامية العربية . ولم يكن هاني يشارك الجند في خشونة الطباع والسرعة إلى التفحّم والاجترأ ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر إليها معجباً ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر في الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقي عيناهما . وقد وقع ولاشك في نفسها قوائمه وشاربه المفتول ووجهه الأسمر الذهبي تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تحمل إيجانها^(١) ولم تحفل من العجلة أن ترمّ الجيب^(٢) على صدرها . وقد توخّط أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلت وهو ينظر إليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجرأ فسألها عن هذا الذي معها فقالت « صوف أغسله » . وعلم منها في بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد درنقت وكاد يخفتي قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة في سفح الربوة ، وهي تيمس ناعمة لينة ، وقد أبدى أعطافها ثوبها المبلل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب إلى حقوئها . فلم يملك هاني نفسه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية وكانت الدروب على ضيقها تزحمها قطعان الغنم القافلة من

(١) الايجان: إناء تغسل فيه الثياب (٢) الجيب من القميص أو الثوب؛ ملووقه وماقورمنه

مراعيها . ولكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتاً من تلك البيوت المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت إليه لفتةً زادت هفوةً على هفوة .

ولم يبرح « هاني » حتى تعرف المكان ، فعرف أنه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « إستانه أثار^(١) » ومعناه باب النار ، وأن اسم قاتنته « جُلْبان » أى غصن الورد .

لم ينعم « هاني » طويلاً بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد اتزعه من بين ذراعيها - قبل أن ينصل خضابُ العرس من يديها - نفيهُ الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعت بعد انخفاء أعلامها واندلع في الأفق ضرامها .

في ليلة الخميس ، خمس بقين من رمضان من سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان ، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين إظهاراً للدعوة وإعلاناً للثورة . فأقبلت العشرات

(١) ورد اسمها « أستان مانارد » ولعله خطأ في النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « إستانه أثار » أى بإضافة الميم التي بأول الكلمة الثانية إلى النون في آخر الكلمة الأولى فتكون هاء ، ثم جعل الدال التي في آخر الكلمة الثانية سكوناً على الراء ، فيكون اسم القرية « إستانه أثار » ، وهي بعينها « باب أذر » التي وردت في مراجع أخرى محلا ميلاده ، لأن إستانه معناها باب ، ولفظ آثر - أو - أذر - أو - أذر بمعنى واحد أى النار

والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدّة والسلاح ، وانتشروا كقطع الظلام تظلمهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جندهم لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، وحلى وشوارب ، وأصوات نغمة تخرج من أجواف منكرة - وهم إلى ذلك ذوو عدد كثير ، وجلد ظاهر ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل . وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغلظ أمرهم واستوثق . فاكسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها .

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية وإحكام تدبير الثورة وتسيير دفعتها ، أن أسقط في يد عمال الأطراف من قبيل الأمويين ودب الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختلف الأمر واستشرى الفساد وانخذلت الحاميات العربية في خراسان ، ثم في العراق . ثم التقى الجيشان : جيش مروان وقد جرّد من رجاله - ممن اختارهم من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم - مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، وجيش المسوّد الكثيف برماحهم كأنها النخل غلظاً ، وفي أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البُحْت وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر للثوار الخراسانيين فتمت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بني أمية وظفر بالخلافة بنو العباس .

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفرق شملها ، ومنها
حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسي الظافر « أبو العباس السفاح » قد وجه
عمه اسماعيل عاملاً على كورها . وعاد « هاني » الجندي القديم إلى زوجته في
قريتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد
والسرور . فقد كان يسره أن تنتهي الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من
انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جُلبان » كما تستقبل
المرأة المحبة زوجها ، وقد استطارها الفرح وماد بعظيماً وغلب عليها . ولم
يكن فرحها كله خالصاً له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبيين ، ولكنه مضرب
في طوايا نفسها لا يبين . ولم يعدم الجندي القديم وسيلة للكسب الشريف ،
فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هي في صنع الأخراج ونسج الجوارب .
وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعي ، وألهاها عن الفاقة ورقة الحال
ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام . وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها
عدة أولاد^(١) ، نعرف منهم فتاة يقال إنها كانت عند فرج القصّار وهو
عبد^٢ كان لأحمد بن عصمة الله الباخريزي ، ونعرف من المذكور اسماعيل ،

(١) قيل إن هانثاً لم يكن له ولد ولا خلف غير أبي نواس ، وقيل إن له أولاداً غيره .
وقد رجح الرأي الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد أبي معاذ على ألسن الرواة أكثر من
مرة على أنه أخ لأبي نواس ، ثم زادنا ترجيحاً ما ورد في تاريخ الأئمة والملوك للطبري في
قوله في الجزء العاشر في الصفحة ٢١٩ ما نصه (وذكّر عن إبراهيم بن اسماعيل بن هاني
ابن أخي أبي نواس قال حدثني أبي قال هبنا عمك أبو نواس مضرباً في قصبته التي يقول
فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ)

وتعرف أكثر منه أحمد أبا معاذ وهو الذي يقال إنه كان يعمل مؤدباً لأولاد فرج الرخجى الخباز^(١) ، ثم نعرف الحسن - وكان مولده في القرية نفسها المعروفة بباب النار سنة ١٤١^(٢) في عهد ثاني الخلفاء العباسيين أبي جعفر المنصور - وهو الذي نبغ ذكره من الأسرة وبه عُرفت ، حتى كان أبو معاذ مع عطّله من مذاهب الأدب وقلة إحسانه لشيء منها يتعشّش بأنه أخوه ، وكان اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى ابنه إبراهيم .

وهذا « الحسن بن هاني » هو شاعرنا الذي عرفته الأجيال بعد ذلك باسمه المحبب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر الشعراء المحدثين .

-
- (١) ورد في بعض رسائل الجاحظ « في صناعات القواد » ما نصه « وسألت فرجا الرخجى وكان خبازاً . . . »
- (٢) اختلف الرواة كعادتهم في مولد أبي نواس ووفاته . فذكروا في مولده سنوات ١٣٦ - ١٤١ - ١٤٥ - ١٤٨ - ١٤٩ وجاء في الجزء السادس عشر في الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال « أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ وولدت في آخرها » . وذكروا في وفاته سنوات ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ولكنهم على الاجماع أو ما يشبه الاجماع من أنه مات وعمره تسع وخسون سنة . ولما كان أبو نواس قدرني الأمين وكان قتل الأمين في سنة ١٩٨ ، فالرجح أنه توفي سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده في سنة ١٤١ وهذا التاريخ لمولده ووفاته يطابقان ما نقله جامع ديوان أبي نواس حمزة بن الحسن الأصبهاني عن أبي بكر أحمد بن شقير النحوي عن أحمد بن أبي طاهر .

طالب علم

كان بأطراف البصرة ، في بعض الدروب التي تخرج من سكة المربد ، بيت من القصب تسكنه امرأة أهوازية وفدت عام ١٤٣ على البصرة ومعها زوجها وهو وقتئذ طراز حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديث عهد ، فلا جرم يكون ضعيف المقدرة مضيئاً عليه في الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبان غلامها « الحسن » - وكان ابن سنتين^(١) - غلاماً من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ، ولكنه كان عوناً على كل حال لمن كان بموضعها من الحاجة وكثرة العيال . ولم تظل المدة حتى أرملت « جُلبان » وأصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها وكانت من النساء برزة شملالاً ، لها على الحياة جرأة وإقبال ، فلم يركبها هم ولم تفتر لها همة . وعمدت إلى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تعشى

(١) قيل في بعض روايات ابن منظور ان أبا نواس انتقلت به أمه الى البصرة وهو ابن ست سنين ، ولكن الذي آثرنا هو ما ورد في ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره سنان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصبعي أن أمه كانت في البصرة ترضع بلبانه غلاماً من ثقيف ، وهذا القول فاطم بأنه كان رضيعاً وقت قدوم أمه به

البيوت بما تصنع من جوارب وأخراج بيدها الصناعات المدربة ، فانفجرت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت إلى دار في المدينة من الآجر والجص . ونفقت تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين في أشياءها من العوانى والرجال حتى قيل إنهم كانوا يلتقون عندها على موعدٍ وإنها كانت تجمع بينهم لريبة .

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تعص بالسكان من كل لونٍ وسحنة . فهي واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقاً إلى الهند والصين ، وتمتد غرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن في فُرُصتها تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافدين .

وفي هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفي هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جُلْبَان » عيشتها في طلب الكسب . وكانت - مع ما يدخل إليها من ربح - لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صفار السمك المماوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دأبها في البخل على نفسها وعلى ولدها .

ولقد زاد « جُلْبَان » استمساكاً بالحرص ما كان يتقلب على عينها أو يتصل بسمعها في عصر الانتقال الذي تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحياناً من ثورات ويستشرب من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وعلت في الناس كلمته وملاّت الصدور هيبته - ومن

ذلك ما جرى في البصرة نفسها بين سمعها وبصرها . فقد ظهرت الدعوة في سنة ١٤٥ لمحمد العلوي - الملقب بالنفس الزكية - من حفدة الحسين بن علي ، وكان معظم رجال البيت الهاشمي ومنهم المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة في أيام الثورة على البيت الأموي ثم عادوا فأثروا بها أنفسهم . وكان من شأن إظهار الدعوة أن وثب أخوه إبراهيم على البصرة ، فغلب عليها وأبدل شعار أهلها من السواد إلى البياض واتخذها مقراً ، ثم انبسط أمره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلما وقر في النفوس أن الدولة للعلويين ، وأنه قد أُدِيل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعاً حتى قال في ذلك بشار بن برد مشيئاً لعهد أبي جعفر المنصور متشفيماً بمصير دولته :

أبا جعفر ، ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
إذا بالجيش العلوية تنهزم ، ويتبدل الحال غير الحال . وتعود البلاد كلها
إلى حوزة الخليفة العباسي فيعمل القتل في العلويين ، وينكل بمن أزر دعوتهم
من أشرف البصرة ، يصلب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدك
دورهم ويخرب بساتينهم ويصادر أموالهم . واختلطت الأمور في المدينة
واضطربت الأرزاق ردحاً غير قصير من الزمن .

وواضح من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملائسة لم يكن من شأنها أن تعدل مجلبان عن طبيعتها - لو صح أن للمرء عن طبيعته معدلاً . فهي ماضية في حرصها بتواطؤ من طبعها وعقلها .

ولقد دفعت جُلبان الصبي منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان في البصرة الى كُتّاب من المكاتب القريبة من الدار . فكان « الحسن » يغدو إليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزاً حتى تقدّم الغلامُ فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التصغير في المكاتب الضرب والحبس . والذي يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصف غلام في « مكتب حفص » ناله الضرب من مقرعة المعلم وهو ناعم من الغلمان المترفين المدللين . والمقطوعة كسائر مقطعات شاعرنا غاية في لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفص « إجلدوه إنه عندي بليدُ
لم يزل مذ كان في الدر س عن الدرّس يحميدُ
كشفت عنه خزوزُ وعن الخزّز برودُ^(١)
ثم هالوه بسير لئن ما فيه عود
عندها صاح حبيبي « يامعلم لا أعود »

وكان اشتهر في البصرة في ذلك الحين القارئ العالم يعقوب الحضرمي وهو من بيت علمٍ بالعربية والأدب، وقد ذاع تعليمه للقراءات وأصبح إمام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة في القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ،

(١) الخزّز من الثياب ما نسج من حرير - والبرد ثوب مخطط .

جعل يعلمه حسبةً ولا يأخذ على تعليمه أجراً . وزاد أنه حين رأى حفظه
وحذقه رمى إليه بخاتمه قائلاً : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة »

ولما شبَّ الغلام رغب في الأدب وتعلق بالشعر . ولم يقع ذلك من أمه
موقعاً ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئاً لما يحصل عنها في البصرة من
وافر الأرزاق . فأسلمته على رغبة إلى بعض العطارين يعمل عنده ويبرئ له
عود البخور . فلم يصرفه ذلك عما في نفسه . وجعل كل يوم يأتي المسجد الجامع
فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ إلى سارية ، ولكل مُريد أن
ينتظم في الحلقة التي يريد . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر في المسجد على
علوم الدين ، وإنما غلومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل
والموضوعات . فكان « الحسن » يقعد بين مَنْ قعدوا إلى أبي زيد الأنصاري
النحوي اللغوي ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات
من كلام العرب وقصائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها
وغريب ألفاظها . ويتحول إلى « أبي عبيدة معمر بن المثنى » الفارسي الأصل
العربي المرَبِّي ، فينفسح له الأفق وهو يصغي إلى كلامه المستبصر الجامع عن
أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس
وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحياناً ويبسط القول في مثالها . وتقد كان
أبو عبيدة - لأصله الفارسي - صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، وإذا قرأ
البيت من الشعر لم يُقمِّ إعرابه ويُنشدهُ مختلف العروض ، مع وفور عقله
واشتاله على علوم العرب . حتى جرى قولهم فيه أن من يأتي مجلسه اشترى

الدرّ في سوق البعّـر . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه :
« أديم طوى على علم » . ثم كان الحسن يقبل على « خلف الأحمر » وهو
من أبوين فرغانيين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها
بالشعر ونقده وبالشعراء ومذاهبهم . فیتلقی منه ويتلمذ عليه ويكثر من
الجلوس إليه . وكان يشهد أحيانا في بعض الأركان من المسجد مناظرات
الأدباء وملاحاتهم ويمرّ أحيانا ببعض الشعراء وقد اتحوا ناحية يملون
أشعارهم في شتى الأغراض من المديح الى الغزل . وكان يحضر الحديث على
الإمام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين
الثقات . فإذا اشتهى الكلام فليس يخلو المكان من أصحابه يستمع إليهم
ويأخذ عنهم

وظلّ الحسن أعواماً على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل في
المساء بين هؤلاء وغيرهم في مسجد البصرة وفي دورهم ، يلتهم علوم زمانه
التهاماً ، ويطوى مراحلها طياً . وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن معاناة الشعر
وتسقط أخبار الشعراء ، وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجان .
وكان الفتى حسن الوجه ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفاً كبير الهامة
منسدل الذوائب ، أثلغ بالراء يجعلها غيناً ، وفي حلقه بحّة لا تفارقه ، وذلك
إلى لين طبع وحلاوة شمائل . فكان إذا دخل حلقة الدرس التفت القوم
إلى حسنه وحدائه سنّه وجمعه خفة الروح والفراسة الى الذكاء وقوة التحصيل
وكان ممن لفتهم صاحبنا في هذه السن أو نحوها محمد بن منذر الشاعر .

فقد دخل ابن منذر في بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ، فوثقت عينه على فتى مستند إلى السارية ، فالتمس رقعةً ودواةً فكتب إليه أبياتاً مدحه بها ، وسأل غلاماً أن يوصل الرقعة إليه . فلما قرأها التفت قلبها وكتب على ظهرها ساخراً ما جفاً :

مثلُ امتداحك لي بلا ورقٍ ^(١) مثلُ الجدار بُني على خُصِّ
والذُّ عندى من مديحك لي سودُ النعال ولينُ القمُصِّ

فلما قرأها ابن منذر قام إليه فقال : « ويلك ، أنت الحسن؟ » . قال :
« نعم » فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

ولقد أشار شاعرنا إلى هذه الحال في مستأنف أيامه في قصيدة له مطلعها :

إذا ما وطئ الأُمْرَ دُلِّعِلِمَ حَصَى الْمَسْجِدِ

وكانت أمه قد شغلت عنه بغرامٍ جديدٍ بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد أصاب الحسن من ذلك تعبيراً لداته وأقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر .
ومنه قول أبان اللاحق :

إن يكن هذا النواصي بلا ذنب هجانا
فلقد عمناه حيناً وصفعناه زمانا
هاني الجون ^(٢) أبوه زاده الله هوانا
سائل العباس ، واسمع عنه من أمك شانانا

(١) الدراغم المضروبة (٢) الجون الأسود إشارة إلى شدة سمرته

ولم يكن إلا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقيةَ الباقية من رعاية أمه
فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذي أحبته . وكانت من صنف المرأة
التي لا تصبر على عزوبة ولا تفنى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد
بكليتها وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الإهمال ، وتركت
للعطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سبب
بينهما حتى موته .

ولعلّ الفتى ارتاح في دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرية ،
إذا شاء ركب رأسه ، وإذا شاء لزم درسه . فقد كان الحسن متقدماً على سنّه
في بكور عقله ، وفي يقظة حسّه . فهو شديد النهم الى المعرفة وإلى الحياة
معاً . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرة زاخرة .

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحد المصيرين
- البصرة والنكوفة - اللذين كانا قبل بغداد يقومان على إشاعة المعارف
والعلوم العربية ، وسائر البحوث الثقيلة والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان
الأدب وضروب الثقافات . وكانتا في ذلك تتنافسان وتتفاخران وتتكاثران
بالنوابغ والعظماء في كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك - بما يزحم
أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الأموال والخيرات - حاضرة عظيمة
من حواضر اللهو ، تعجّ بما فيها من الملاحى وأسباب اللذة وموجبات الفتن

والغوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بني العباس حين فكروا في التحرز
للملكهم من أطاع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة
يُقطعونهم فيها القطنع والضياح الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى
يشغلهم مقامهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة .

وكانت المدينة في حقل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة ، تتخللها المياه
وتتوسطها الميادين العجيبة ، وتزهو بالحُصْب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات
القواكه الأثيرة . وكان واديهما الأعظم - مجتمع الفراتين المعروف بشط العرب
- يُقبل ماؤه مُعْتَقاً ويفيض متدفقاً . وهو بالحدائق المتصلة منتظم - فأوله
الرُطْب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب - وبينها معاصر الدُّبْس . ولم يكن
في الدنيا أكثر نخلاً منها حتى كان يباع التمر فيها بأبخس الأثمان ، وكانت
النخيل تتصل مسافات شاسعة إلى أرباضها ومحلاتها وما جاورها ، فلا يكون
الإنسان في مكان إلا وهو في نهرٍ ونخيلٍ ، أو بحيث يراها .

ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالمعلق القلب عن هذه المفاتن .
وهو من علمنا من يقظة الحسّ وتفزّز الأعصاب وتشوّف النفس . وكان يمرّ في
كل صباح ومساءً بالجداول والبرك الفسيحة تجري فيها الزواريق والسماريات
وفيهما المتزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدرين
ومُصعدين . فإذا احتواه حانوتُ العطار الذي يعمل عنده ، تطرّق إلى سمعه
ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصفٍ لما كان من مجالس

اللهو ونوادير السكر ، وإنشاد لأحدث ما نظمه الشعراء المحدثون في الخلاعة
والمجون . حتى إذا كان العشيّة مع أهل المسجد لم تخلُ حلقاتُ الدرس من
روايةِ بعض الملحّ والبطالات في الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكهين
غير متحرّجين ، بحجة أن في بعض الهرل تنشيطاً للقلب وذهاباً بالسكال ،
فضلا عن كان يلتقي بهم الفتى ويرافقهم في الطريق من الشطار والعيارين
ومن لفّ لفهم من خلطاء السوء

الذنب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار الذي أسلمته إليه ، وإن يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانه للأسمار وسماعه لرواة الأشعار . وكانت نفسه تهتز للشعر ، تتشرب معانيه شرباً ، وتتطرب لوزنه ونعمه طرباً ، وتغمرها منه غمرة تُسكر حسه وتغلبه على وعيه . وكانت أمنية حياته التي بها يحلم ، أن يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكركم ويتغنى أهل العصر بشعرهم .

ولقد شاء القدرُ الساخر فيما يخلط من خيرٍ وشر ، أن احتاج عاملُ المنصور على الأهواز « أبو بيجير الأسدي » إلى عطرٍ يُعمل له ، فلم يجد في الأهواز عطاراً يصلح لذلك . فبعث إلى البصرة في طلبه ، فأشخصوا إليه أستاذَ الحسَن والحسَن معه . وأقاما يعملان في داره . واتفق أن قدم الأهواز والبةُ بن الحباب الأسدي الشاعر قاصداً للأمير - وهو ابن عمه - فمدحه وأقام عنده . ووقع نظرُ الشاعر الغرل الماजन على « الحسن » فاستحلاه وأعجب

بظرفه . ثم خاطبه ووَصَلَ معه الحديث ، فسره ما كان عليه « الحسن » من
الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث أن اطَّلع منه تعلقاً بالشعر ، ورغبةً في الاقتدار
عليه ومجازاة صاغية القريض ورواض القوافي من الشعراء المذكورين .
فقال له : « إني أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى لك الأتصيعها .
وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصبني حتى أخرجك » .

فقطع الفتى متشوقاً إلى هذا الذي أحسن الظن باستعداده ، وقطَعَ على
نفسه العهد الأكد بتخريجه . ولم يملك أن سألَه مبتدراً : « ومن أنت ؟ » .
قال : « أبو أسامة » . فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال : « نعم ! » .
فتهلل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمناً : « أنا والله - جعلتُ
فذاك - في طلبك ، وقد أردتُ الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك »
قال الرجل متعجباً مغتبطاً : « ولماذا ؟ » .

فاسترسل الفتى ساجح النظرة فائز النفس : « شهوة اللقائك ، ولأبيات
سمعتها لك » . قال : « وما هي ؟ » .

فأشد الحسن بصوت حلو الشغ ، يجعل الرأء غينا ، وفي نبرته حرارة
الإعجاب وهزة التأثر :

ولها - ولا دَنَبَ لها - حُبٌّ كأطرافِ الرماح
جرحتُ فؤادك بالهوى فالقلبُ مجروحُ النواحي
فازداد والبة حُباً وعجباً .

وكان والبنة مذكوراً في البصرة ، وقد شاع ذكره واستطارت شهرته
عنها لقدمه في جملة من قدموا على « محمد بن أبي العباس السفاح » حين ولاء
عليها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ١٤٧ بعقب مقتل إبراهيم العلوي .
فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء والمغنين ، وأصحابه عمه
المنصور - داهية بنى العباس - قوماً يُعاب بصحبتهن ومجاناً زنادقة ، ليقص
ذلك منه فيرتفع ابنه المهدي عند الناس . وكان « محمد بن أبي العباس »
يغلف لحيته بأواق من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير مسمرة حتى لقبه
أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن يُغنونهُ دُحمان وحكم الوادي
ويشترك معهما أحياناً مؤدبه الخليل حماد عجرد في جماعة من ندمائه منهم
والبة ، وهم جميعاً يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون في
مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوي البنية شديداً نهايةً في الشدة ، فكان
أول من يفيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن علي » فاذا شرب
غنوه بما قال - أو بما قال حماد عجرد على لسانه - تشبهاً بها فيطرب ويضرب
برجله . وكان يأنس أشد الأُنس بوالبة ، ويسكن إلى ظرفه وخفة روحه ،
ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يُؤثر عن ذلك في البصرة أن حكماً
المغني دخل عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فاذا به يتململ خماراً
وبيده كأس وهو يجتهد في شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين يديه وفي أيديهم
أقداحهم . فقال « يا حكم غنني ، فإن أطر بنتي فلك كل ما يهدى إلي اليوم »

وكان بين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم . فعمد الحكم إلى آياتٍ لوالبة ، فاندفع
يفتني بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسُ
واليوم هو نيروزُ قد عظمته المحوسُ
لم تخطه في حسابِ وذاك مما تسوسُ

فطرب الأمير لها ، واستعادها ثلاث مراتٍ ، وعبّ قدحه ، واستمر في
شربه . وأمر لمطر به بأن يُحمل إليه كلُّ ما كان بين يديه .

وكان هذا وغيره من الأخبار والأشعار يشيع عنه في البصرة ويتسامع
به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها في تلك الأيام . فوقع الحسنُ - ولا جرم -
تحت تأثيرها ، وأخذته شهرةُ الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تلقاءه
كالنوم خدر النفس مضجع الحسن مسلوب الإرادة . فلم ينشب والبة أن
اخذته حتى صار معه إلى الكوفة .

ورد الغلام مع أستاذه إلى الكوفة ، فظالعه من جانبها الشرقي نخيلٌ
مختلفة متصلة تمتد امتداد البصر ، وألفاها أطف من البصرة حرًا ، وألقى
الهواء فيها أصحّ ليس بالرطب الثقيل ولا بالندى يختلف في اليوم الواحد ،
وهي كذلك أطيّب ريحًا بما في سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف
البصرة إذا هبت الجنوب على أرضها النشاشة السبخة . والكوفة مرتفعة عن
البصرة معظمها على الفرات ومنه شربُ أهلها . ويأتيها الماء بعدو بته وورده ،
ولا يأتي البصرة إلا بعد تغيره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذعاق إذا كان

اللذ في الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى الحسن - وإن كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبه وصحبه - أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد صباه لم تزل أحبَّ إلى قلبه وأحلى في عينه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارة ، وأكثر خلقاً وأزحم قدماً وأدوم حركة ، كما أنها أشد تنوعاً وأبهج مجلى ، أوتيت من كل حلى وزينة .

وكان والبة بن الحباب على قولهم في نسبه - أسدياً صليبية . ولكنه كان مع ذلك أشبه بالموالى الروم منه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون محمره ، ذهبي الشعر - كما تدل عليه صفته في هجاء أبي العتاهية له وتهجينه لنسبه إذ يقول من قصيدة :

وابن الحباب صليبية زعموا ، ومن الحمال صليبية أشقر
ما بال من أبأوه عرب الأنا ، وإن يحسب من بني قيصر
أترون أهل البدو قد مسخوا شقراً؟ أما هذا من المنكر؟
أكذا خلقت «أبا أسامة» ، أم لَطَّخت سالفتيك بالعصفر
مالى رأيت أباك أسود غر يب القذال كأنه ذُرُور
وكان وجهك حمرة رنة وكان رأسك طائر أصفر
ومن قصيدة أخرى :

أوالب ! ما دهاك ، وأذ ت في الأعراب ذو نسب ؟
أراك ولدت بالمرية يخ يا ابن سبائك الذهب
فجئت أقبشر الخدي ن ، أفرق ، عارم الذنب

هَلُمَّ إِلَى الْمَوَالِي الصِّبِّ د فِي سَعَةِ وَفِي رَحَبِ
فَأَنْتَ بِنَا - لِعَمْرِ الْآ ه - أَشْبَهَ مِنْكَ بِالْعَرَبِ
وأهاجي الشعراء في والبة كثيرة ، وأكثرها فاحشٌ مقذعٌ كالذي
هجاه به « سلم الخاسر » - وهو راوية بشار وتلميذه - لما كان عليه والبة
من المقابح والمقاذر الخلقية . وكان والبة أبعد ما يكون عن ملازمة أهل الجد
من العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد في الدين ممن اشتهروا في مدينة
الكوفة الجليلة ، وفاخرت غيرها بهم . وإنما كان يجتمع إليه في الكوفة
جماعة منهم مطيع بن إياس ، وحماد بن محمد ، ويحيى بن زياد الخارثي من
مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وهم فوق عيبتهم بالجوارى والإماء
يعدون أقدم المهتكين في تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون في بعض
دورهم على الشراب والغناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضهم
على بعض أقبح العربدة ويتهاجون هزلاً وعمداً أخش الهجاء . وكان أهل
الفن لذلك العهد يتعاشرون فلا يكادون يفترون ، ويتشاركون فلا يكاد
يستأثر أحدهم على صاحبه بمالٍ ولا ملكٍ حتى الجوارى والغلمان . ولا عجب
فكلهم خلعاء مجانٍ مستهترون ، ليس فيهم إلا متظرفٌ منسوبٌ إلى الزندقة
حيث العقيدة متهمٌ في دينه . فلما قدم والبة إلى موطنه ومعها الحسن ، وجه
إلى أصحابه وندمائه ، فجعل لهم مجلساً احتفاءً بتلميذه ، ولبثوا أياماً في صبح
وغبوق ، يسرون وبتمازحون وينشدون الأشعار .
وكان والبة ماجناً طبعاً . وكان مضياعاً متخرقاً في النفقة على الجوارى

والعلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقة مبدولة للشرب المنادمين ، وعلى الاخوان
ممدوداً للاخوان المؤاكلين . جافلاً بكل ما لذ وطاب من غير حساب . وهو
مع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه فى العطاء ، فلقد فاته الحظ فى منادمة
الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدي لبعض أشعاره ، كراهة منهم
لإسفافه فى أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره
فيها . وإنما كان يقصد إلى من يشاكله من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا
لا تدوم لهم دولة . ولا يُقامون بعملهم حتى يُصرفوا عنه ويُرأوا . فلم يكن
له من معول على غير المجدودين من أقاربه ، ثم من هم أكثر منه حُظوة أو
أقل تمييزاً من أقرانه . ومن ذلك ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبى بجير
الأسدى عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذا كروه من قصده إلى الشاعر حماد عجرد
يطلب إليه بعض المال ، فلما أنظره لم يأنف من العودة إليه . ويقول الرواة
فى ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم أصنع شيئاً » ، فدعا والبة بدواة
وقرطاس وأملى من كتب له هذه الأبيات :

حماد ما كانت عدا	تك بالعدا الكاذبه
فسلام ، ياذا المكرما	ت وذا الغيوث الصائبه
أخرت - وهى يسيرة	فى الرد - حاجة « والبه »
فأبو أسامة حقه	أحد الحقوق الواجبه
فاستحى من تراده	فى حاجة متقاربه
ليست بكاذبه ، ولو	والله كانت كاذبه

فقضيتها أحدثت غيب قضائها في العاقبة
 وبديهي أن حماد عجرد إنما يسمع لأول مرة من يمدحه وينعته نعت
 ذوى المكرمات الإضافية والغيوث الصائبة ، فلا غرو أن قيل بعد ذلك إنه قضى
 للمادح حاجته وزيادة .

وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الخمر في دساكر طيزناباذ
 بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى يسكر ، ولا يفيق من السكر إلا
 ليعاود الشرب ، ويقم على ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن »
 إلى هذه الأماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا يني يغمز عليه الساقى
 فيسقيه حتى يتلف ، فإذا هو إلى جانبه سكران لا يعقل ولا يعنى ما يفعل ،
 قد خلع الحشمة ومجن . ولقد ذهب ذات مرة في المجون أن جعل والبة في
 سكره يقبض على البسكين ويهيم بقتله ، لولا ما أظهر الفتى من سرعة البادرة
 واستحضاره لمثل من الأمثال العائرة ضحك له أستاذه الخليلع . وظل والبة
 على هذه الحال مع تلميذه يحيف عليه بالشراب ويعريه بالمجون والاستهتار ،
 حتى تم له مراده من توهين خلقه وإفساده .

وإذا كانت هذه المعاشرة لوالبة وأصحابه قد علمت « الحسن » الفساد
 والعهر ، فقد هيأت له الاتصال بالشعراء ، وحفزته منادمتهم في مجالس السكر
 إلى النطق بالشعر . ومما يروونه في ذلك أنه اجتمع وهو صغير في صحبة أستاذه
 بالأقطاب الثلاثة حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكن
 منا اجتماع في دار أحدنا » .

وقال حماد :

يا إخوتى عندى لكم بطة ^(١)	ودنّ خمر من رساطون ^(١)
ولحم طيرٍ وأتابيعه	فإن نشطتم فأجيبونى

وقال مطيع :

اللهو عندى جميعاً	حديثه وعتيقه
وقرطقى ^(٢) شهى	يفوح منه خلوقة ^(٣)
والخمر عندى عتيق ^(٤)	يشقى القلوب غبوقه ^(٤)

وقال يحيى بن زياد :

عندى نبيذ معسل	والموصلى وزلزل ^(٥)
وبطة وخروف	وماء مزن مزمل
وبربط وصنوج ^(٦)	وصوت ناي وججل

وعندها التفتوا جميعهم إلى « الحسن » كما ناله - وهو الصغير الغريب

بينهم - داراً ومالاً مثلهم، فأرتج عليه لحظة ثم ضحك وقال :

لا تطمعوا فى شرابى	فتحصّلوا فى السراب
قدون خبزى ولحمى	والخمر شيب الغراب

(١) لفظ رومى معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل (٢) قرطقى أى

تديم بليس القرطقى وهو ضرب من القباء من زى العجم (٣) ضرب من الطيب .

(٤) الشراب بالعشى (٥) الموصلى وزلزل من أعلام الموسيقى والغناء

(٦) البربط نوع من العيسدان والمزاهر - والصنح صفيحة مدورة من النحاس الأصفر

تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار .

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادوا على الشراب .
وكان ينعقد لهم في كل يوم مجلس من هذه المجالس في عقر دورهم أو على
سطوحها أو في ظاهر المدينة بين البساتين أو في بيوت الحمارين . ولقد أفاد
الفتى من ذلك مراناً على النظم وقدرةً على الارتجال ، وصار في مقدوره كلما
شاء أن يكون كلامه كله شعراً بغير جهد ولا معاناة . خرج يوماً مع والبة من
الكوفة يريدان الحيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تعوص في الرمل وقد جاعاً، فدار
بينهما من المقال ما يدور في أمثال هذه الحال إلا أنه شعر :

الحسن : ياليت فيما بيننا سِتَّةٌ	أرغفةً ما بينها وَرَّةٌ
والبة : من ورأرض الصين يُوتى بها	مشويةً تتبعها رَزَّةٌ
الحسن : خوذابة ^(١) ، تؤخذ من بعدها	خمرٌ من الحِيرَةِ المَزَّةُ
والبة : يديرها ساقٍ وقد شابهها	من ماء مَرْنٍ صَوَّبٌ مؤتَرَةٌ ^(٢)
الحسن : طاب لنا العيش ولكننا	أرجلنا في الرمل مرهتَرَةٌ ^(٣)

وجملة القول ، أن تواتر هذه المنادمات والمطارحات ، كان داعياً للحسن
على شحذ قريحته وإيقاظ ملكته إلى إدراك المعاني واقتناصها ، والاستعداد
لها باللفظ المناسب والقالب المحكم . فكان في كل يوم يزداد تمكناً من فنه،
ويزداد معه ثقةً بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء ، بل جعل
يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقل عنهم .

(١) طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة فائرة (٣) مفروزة ثابتة

صوت الصبا

كانت الكوفة في ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماع بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجلّ المقيمين بها وأكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن . وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت وأفانين الصناعة . وكانت ربيحة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء ليثة . وكانت أوفرهن حظاً سلامة الزرقاء وكانت تخرج إلى المعجبين بها في إزار ورداء قوهيتين^(١) موردين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيتها ، وقد أشال نهودها ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبر خفيف مخضّر ممدد على شفقتها ، وكانما خُطت طرفتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويقصر عن كل ضرب من ضروب حسنها الوصف .

وهؤلاء الجوارى القيان قد شهّرنهن الكتيريون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الإمارة . وكانت تبذل أموال عظيمة في شرائهن ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهن . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ، نقدَ فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة ليكونا لها إلا أن

(١) نسبة إلى قوهستان

تأخذها بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح بن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغنت الزرقاء ، فبعث معن إليها بدرة فصبت بين يديها ، فبعث روح إليها أخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع درهم فبعث بصك ضيعته .

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانته ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منبج مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهم على مرضاة هذا الشاعر أو ذاك لما فى الشعر من حسن الدعاية .

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدم « الحسن بن هانىء » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة مهتكة ، أديبة متزفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان . فكيف يعاطين هؤلاء الجمان الراح ، ويستحشئن إليهم الأقداح ، ويسابقتهم إلى الشرب ويجالسهم متبذلات ، ويطارحنهم الجون والبذاء ، فضلا على اللعب بالعود والغناء . ولعل الحسن كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة المحرّبات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف

وولع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هي التي شاءت لهن أن يصبحن معهن إلى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتى يعشن المجلس ممن تجاوزن غرارة الشباب وأدر كهن النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لهن بالرجال ملابس وخلطة ، وقتلن الحب معرفة وخبرة ، حتى صرن أفترا نشاطاً وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجورهن وخلاعتن ومع ما يبدينه من تصنعهن وتكسرن وكثرة تضاحكهن . وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السن فإنها تختلف عنهن : مهففة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهى إلى الغزال أقرب منها إلى المهاة . وكانت خفرة مسيلة الهدب غضيفة الطرف ، خدّها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه أول خروج لها من خدرها . ولقد تلقى الجماعة لقاءهم لغيرها بالمرح والعبث شأن أهل اللهو ، إلا « الحسن » شدّ عنهم فى هذه المرة ، وكانما أنسى ما أخذه عنهم من العريضة والمجون . فبقى معهم سواد الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع أنه حاف على نفسه فى الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم مجهم له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يئلبهم عنه ما هم فيه من السكر لألقوا الفتى فى وجومه يلحظ الفتاة ويختلس إليها النظرة ، وهى على حياؤها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة والإلحاف الا النغبة بعد النغبة مستكرهة للشرب لم تتعوده تعود المتوفرات على مجالسه .

وقضى الجماعة والجواري سهرتهم على المأثوف من سنتهم في المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم وبدا فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبوح ثم تفرقوا . وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها ويديم التفكير فيها . ولعل الذي وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الغرارة التي لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء حتى لقيها . وإنه ليحس نحوها بشيء لا عهد له به ، يسرى في كيانه وينساب إلى وجدانه ويمتزج بأجزاء نفسه ويخالط قواها .

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجواري في زوراتهن ، و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليله وأرقت عينه ، واشتدت به الحال وسامت صحته وشفة السقام . وزاد في بلائه كما زاد في عجزه أن رأى فتاته لم تنشب أن تعودت الشراب حتى انسأقت مع الجماعة ، منصرفاً عما كان يبديه لها من جد الحب ، مؤثراً لما هم بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت في خاطره المعاني ، فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجداني صادر عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى تَعِبُ يستخفه الطرب^(١)
إن بكى يحقّ له ، ليس ما به لعب
تضحكين لاهيةً والمحّب ينتحب

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبي .

تعجبين من سقمى حتى هي العجب
كلما اتقى سبب منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة واقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرها
وحلت أخريات محلها ، شأن من يتعرضن لهذه الحياة الطائشة المتقلبة
وينزلن في غمارها .

ولكن القى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة إلا بعد توكيد العبرة .
فقد اقترن في نفسه ما كان من أمه وتفريطها فيه وهو صغير إثارة للتبعل ،
ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جد العاطفة
إلى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له في بداية تكوينه من هذين رأى في « المرأة
والحب والحياة » بقى في نفسه وحسّه مثل وسم النار لا ينمحي آخر العمر .
ولقد استأنف القى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتذ
طعمها . والذكرى تراجعها ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله في سنّ
العشق ، لا بد أن يتحرّق من لاعج شوق . ومهما يكن في هذه السن من غلبة
الطبيعة وتيقظ الحس ، فاتها أيضا أوان تفتح العاطفة والاستجابة الوجدانية
لدواعي النفس .

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة حبه الصبياني من
ملابسها المادية ، وتحولت صورة الفتاة في مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت
في باطن وعيه وقرار سريرته كالمثل المجردة في عالم المعاني .

واتفق وهو في هذه الحال أن قدم بصحبة والبة إلى منزل محمد بن سيار
ابن يعقوب، ولديه قيانٌ أخرجين لندمائه، وجلس ابنه في صفين وكان جميلاً
رائعاً في العين مع حسن موقع في النفس. فكان من فيض خاطر «الحسن»
وسبحاته العبقريّة إنشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة الروحية .

يا ظبي ابن سيار وزينَ صفَّ القيانِ
خُلقتَ في الحسنِ فرداً فما لحسك ثابِ
كأما أنت شيءٌ حوى جميع المعاني
لِينَعَبْتِكَ وهى إن كلَّ عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرة في بعض أوساط
الكوفة، فاتصل به أدباؤها ورجبوا في صحبته، فشهدوا منه أدباً جمّاً، وكبيرةً
في أعينهم وعظم موقعه عندهم. وكان أشدهم شعوراً بعظم استعداده وما هو
مدخر له في مستأنف حياته، أستاذُه والبة بن الحباب، حتى عرض ذلك له
في الأحلام.

فانه - فيما روي عنه عن نفسه - يقول: كنتُ نائماً ذات ليلة، والحسن إلى
جانبي نائم، إذ أتاني آتٍ في منامى. فقال الهاتف: «أتدرى من هذا النائم
إلى جانبك؟». قلت: «لا».

قال: «هذا أشعر منك وأشعر من الجن والإنس. أما والله لأفتنن
بشعره الثقلين، ولأغرّين به أهل المشرق والمغرب».

فعلت أنه إبليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »

قال : « عصيتُ ربِّي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا
ألف سجدةٍ لسجدتُ » .

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضع الإحسان في قول ، فكان من ذلك
أنه على صغره لم يأخذه الشك في شعره ، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير
عليه لأحد ممن حوله كبيرَ تقدمٍ ومزية . فأدر كته أنفةً من الحياة التي يحياها
مع والبة . فاعتزم الرحيل ، وأذنه به ، معتذراً بالخروج مع وفدِ لبني أسدٍ إلى
البادية في طلب شوارد اللغة والاحاطة بغريبها والتمسكن من مذاهب الأعراب
في الجزالة وفحلى الكلام .

اثر البادية

أقام « الحسن » في البادية سنةً أفادت روحه في أنفاسها مسحةً من روحها واكتسب من صحة جوها بعض الصحة في جسمه ونفسه ، وزادت حياة الفطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد إلى البصرة من بعدها مثقل الجعبة من مآثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقبت خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرف أرضها وسماها ونباتها وحيوانها، حتى أصبح أعرف أهل الحضرة بها وأبصرهم بحالها وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد العصماء في بابي الصفات والطرديات .

وتلقى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل ، لما كانوا يعهدون عنده من فرط الإعجاب بالوبة وتغنيه بشعره ولهجه بذكره قبل أن يلقاه ، وكان ظنهم وقد آقيه أنه غير مفارق له العمر كله . فكان « الحسن » أول عودته يسمع في كل خطوة من يقول له بعد تحيته : « أرغبت عن والبة ومملت الكوفة !! » فيجيب موجزاً متأدياً : « هي أجدى وأطيب من أن

تَمَلَّ ، ووالبة ممن لا يُرْغَبُ عنه ، ولكنني نَزَعْتُ إلى الأوطان واشتقتُ
إلى الإخوان »

واستأنف « الحسن » في البصرة حياة الدرس والتحصيل . وكان حلقات
الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن
يغشاها ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد
بلغ من ذلك أن تحدّث عنه جماعة من الرواة من شاهدوه في مستقبل أيامه
فقالوا : « كان أقلُّ ما في الحسن قول الشعر ، فقد كان فخلاً راويةً عالماً » .

والبصرة أسبق عهداً من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلمائها
من أرسخ الناس في العلم قدماً وأغزرم مادة وأولام بالثقة وأصحهم سنداً ،
مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بني العباس لهم واتخاذ
المؤدّبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصرهم إياهم والسرعة إلى تلبية الدعوة دون
أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف إلى حلقات
الدرس التي كان يختلف إليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام
أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان
كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحدٌ إلى مثله ، وامتنع في اعتقاد القوم
أن يلحقه أحدٌ من بعده ، فهو الإمام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ
من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم
أنه كتاب سيبويه ، و « قرئ الكتاب » فلا يشك أنه كتاب سيبويه ، وكان

أشرف هدية تهدي إلى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظرة فيه .

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة إلى البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثل « خلف الأحمر » . ولا جرم ، فقد كان شاعراً يعاني نظم القريض ويحسسه ولم يكن مجرد عالم بالشعر راوية له . وإذا كان الأقدم في أساتذته والبة بن الحباب ، فإن خلفاً الأحمر كان هو الأكثر تأديباً وتخريجاً له .

و« خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة ، وكان أوسع الرواة روايةً لأشعار البادية . ولقد كان الناس من قبل ، وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب « العباس بن الأحنف » الشاعر الغزل المعاصر ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب حتى صار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب^(١) . وكان خلف يقول الشعر فيجيد ، وربما نجله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم . ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يباليون إذا روى خبراً أو أنشدهم شعراً ألا يسمعه من صاحبه . وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس ببيت شعر ، من احتكام بعضهم إليه واستنصاحهم إياه . ولقد شاع في ذلك قول مروان بن أبي حفصة له : « نشدتك

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

الله يا أبا محرز ، إلا نصحتني في شعري ، فإن الناس يُخدعون في أشعارهم » .
كما شاعت قصة ابن مناذر الشاعر وقد حضر مادية كان فيها خلف الأحمر
وتلميذه الأصمعي . فقال الشاعر خلف : « يا أبا محرز ! إن يكن النايفة
وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلّدة . فقس شعري إلى شعرهم
واحكم فيها بالحق » . فغضب خلف لهذه الدعوى العريضة . ثم أخذ صفحة
مملوءة مرقاً فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضباً ، ولعله هجاه بعدها من
جراه ذلك .

ولم يكن خلف الأحمر ضئيلاً بشيء من أدبه على تلميذه « الحسن »
وإذا كان والبة قد جرّاه على الشعر كما جرّاه على السكر وهو غلام ماطر
شاربه بعد ، فإن خلفاً في تعصّبه للجزالة وجودة السبك وتنطّسه في النقد
عمل على كفّ جماحه وألزمه التريث والتثبت واستكمال أدواته وتقوية ملكته
قبل كل شيء ، وأعلته بقوله : « لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ
ألف ماثور للعرب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » . فعكف الحسن
يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوى الذاكرة ،
فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها » . فجعل خلف
يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر
قلب لا يخرم منها حرفاً . فلما أظهر الأستاذ أن ذلك حسبه وأن الذي أدّاه
التلميذ فيه مقنع وأى مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له في نظم الشعر .
فإذا الأستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف الأرجوزة

كأنك لم تحفظها» وكان الفتى جيدَ الحافظة بعيدَ النسيان ، فاحتج متعجباً :
« هذا أمرٌ يصعب على » ، فإني قد أتقنتُ حفظها » فأصرَّ الأستاذ : « لا آذن
لك إلا أن تسأها » . فذهب الحسن إلى بعض الديرة خالياً يتفرج
وأقام مدةً حتى نسيها . ثم حضر فقال مؤكداً : « قد نسيها حتى كأن لم أكن
حفظتها قط » . عندئذ قال الأستاذ : « الآن إنظم الشعر » . ولقد روى عن
شاعرنا أنه قال « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن
الخنساء ولبلى ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذي أخذ به الأستاذ تلميذه ظاهرٌ فيه أنه إنما أراد إلى
تخريج شاعر لا راوية . ومن ثمة كان دفعه إياه إلى التكثر من الحفوظ ثم إلى
تعمد نسيانه ، تحقيقاً للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير
قتل للمسكة الشاعر المطبوع فيه .

ولقد جاءت أشعاره وهو في كنف أستاذه شاهد صدق على مبلغ ما كان
من تأثره بالأساليب القديمة وشعر الأعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لأسعد بن عصمة المشهور بأبي البيداء الرياحي
وهو أعرابي نزل البصرة يعلم فيها الصبيان بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من
الفصحاء ينقل الرواة عنه وروى له « الحسن » شعراً . ومن شعره يتغزل :
قال فيها البليغ ما قال ذو العسى ، وكلُّ بوصفها منطبقٌ
وكذاك العدو لم يعد أن قال ل جميلاً - كما يقول الصديق
وقد أتت مرثية « الحسن » فيه - كما هو المرتقب لذلك الحين منه -

متوعدة ، عليها جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية وعنجهية البادية ، كثيرة الغريب ، حوشية اللغة . ومطلعها :

هل مخطئ حفته غفر بشاهقة رعى بأخياها شتاً وطباقا
إلى أن قال :

زار الحمَامُ أبا البيداء محترماً ولم يغادر له في الناس مطراقاً^(١)

ومن طريف ما ذكر أن الأستاذ الأحمر قال ذات يوم لتلميذه الحسن ، ولعلها طريقة استحدثها لتخريبه : « إرثني وأنا حي حتى أسمع » . فلم يُبهم الحسن أن جاء بمرثية لم يملك السامعون لها إلا استجاداتها ، ولكنهم تعللوا وقالوا له إن كنت قلتها فقل في نحوها . فاعتزل وعمل فيه أخرى . فلما أنشدها وقعت موقع سابقتها . فقال أستاذة : « أحسنت والله » . فقال الفتى مازحاً : « يا أبا محرز ! مت ، ولك عندي خير منها » . فقال : « كأنك قصرت ؟ » . قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعث الحزن ! » . ولما لم يكن سبيل إلى إرجاء الأستاذ حكاه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بني ! إن شعرك فوق سنك . ولئن عشت ، لتكونن رئيساً في الشعر » .

وأما المرثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . وإحداها رجز ومطلعها لو كان حياً واثلاً من التلّف لو ألت شعواء في أعلى شعف والأخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها إلا أنها ليست رجزاً وهي

مثبتة في ديوانه كأختها ، إلا أنه في هذه وتلك أبيات لا بد من إيرادها .
وهي قوله في الأولى :

أودى جماع العلم إذ أودى خلف من لا يعدُّ العلم إلا ما عرف
قليدم من العياليم الخسف فكلمنا نشاء منه نعترف
رواية لا نجتني من الصحف

ومثله في القصيدة الثانية :

لما رأيت المنون آخذاً كلَّ شديد وكلَّ ذى ضعف
بت أعزى الفؤاد عن خلف وبات دمعى إلا يفيض يكف
أنسى الرزايا ميت فجعته به أمسى رهين التراب في جدف
كان يسنى برقه غلقاً في غير عى منه ولا عنف
يجوب عنك التي عشت بها من قبل حتى يشفيك في لطف
ولا يعمى معنى الكلام ، ولا يكون إنشاده من الصحف
وكان ممن مضى لنا خلفاً فليس منه إذ بان من خلف

وهذه الأبيات من المرثيتين أوردناها لأنها فوق بلاغتها بليغة الدلالة على
مكان خلف من شاعرنا الناشئ . ولقد كان التلميذ يكثر من ذكر أستاذه
ويفخر به . ولم يزل يقول فيه « جمع علم الناس وفهمه » . وكان خلف
— كما تقدم — له حذق بالشعر وطبقة فيه ، وقد اجتمع له ديوان شعر حملي عنه
« الحسن » .

كذلك كان التلميذ أثيراً عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسان
أنه كان من أميل الخلق إلى « الحسن » وأنه يوده أكثر من غيره من
الشعراء . ولما كان خلف ولاء في الأشاعرة وكان أحد عمال اليمن وكان
عصبياً ، فقد استدعى « الحسن » يوماً وقال له : « أنت من اليمن ، فتكن
باسم من أسماء الذّوين » . والذّوون هم المصدرة أسماءهم بـ « ذو » من ملوك
اليمن . وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيّرهُ ، فاختر منها « ذا نواس » .
فكنّاه « أبا نواس » . فصارت له كنيةً وغلّبت على « أبي علي » كنيته
الأولى . فهو منذ ذلك الحين إلى يومنا يُعرف بين الناس عوامهم وخواصهم
« بأبي نواس » .

وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبي نواس في الأدب هي التي
جعلته يدعو الفتي إلى إظهار نسبته إلى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من
شأنه ، تعصباً لها

والأنساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة . وقد وقع من ذلك
للشعراء مادة لهجاء من يريدون هجاءه ، بالتنديد لدعواه وتمهجين نسبه بالحق
وبالباطل .

وكان أبو نواس من نسل الموالى ، فادّعى في أول دعوته أنه من ولد عبيد
الله بن زياد من بني تيم اللات . ولكن شاعرنا لم يهنأ طويلاً بدعوته إذ قيل
له إن الرجل الذي تدّعى إليه لا عقب له ، لأنه فُلج ومات عن غير ولد .

فاستحى الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم ويراقبهم .
وأضى بعد ذلك صدرًا من عمره يخلط في دعوته . فتارة يدعى للزارية
وينسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على الزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة
« حَكَم » . وكان كلما ادعى لواحدة هجا الأخرى وأقذع في هجائها حتى
هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وعزَّزهم له تلميحات
ووقوعهم فيه تصريحًا . ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبطى ، فإذا قيمى له : « أنت مولى حَكَم ؟ » قال « أجل »
هو مولى الله - إذ كان به لاحقًا ، فالله أعلى وأجلُّ
واضعًا نسبتَه حيث اشتهى فإذا ماراه ريب رَحَلُ
ولقد ظل الرقاشى وأبونواس يتهاجيان فما أمسك واحدٌ منهما عن
صاحبه حتى فرَّق الموت بينهما .

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :

وَيُنمى إلى حَكَمِ دَعْوَةٍ وما إن له نَسَبٌ فى حَكَمِ

على أن المذكور فى أمر أبى نواس أنه كان بالفعل مولى الحكيمين .
وهى قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكيم أمير خراسان وقد
كان جد أبى نواس من مواليه . ومن أجل هذا تكرر من الشاعر نغره باليمن
ومدحه اليمانية ، وإذا كان قد عرض لها بالشتم مرة فذاك من حرّ غيظه وغليان
صدره على بعض اليمانيين وبخاصة هاشم بن حُدَيج الكندى ، وقد قال فيه :

وَتَحْتَدُّ، حَتَّى يَخَافُ الْجَلِيسُ أَذَاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَدَّةِ
وَتَحْتَمُّ ذَلِكَ بِفَخْرِ عَلَيْهِ بِكِنْدَةٍ، فَاسْلُخَ عَلَى كِنْدِهِ
وَلَمْ يَلْبَثِ الشَّاعِرُ أَنْ اعْتَذَرَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذْرِ ذَا كَرًّا أَنَّهُ يَمْنَى وَأَنَّهُ لَمْ
يَجَاوِزْ بِشْتَمِهِ الْيَمْنِيَةَ أَنْ سَبَّ نَفْسَهُ وَأَهَانَ وَالِدَهُ :

فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشَّمِّ وَالِدِي وَعِرْضِي، وَمَا مَزَّقْتُ غَيْرَ أَدِيمِي
وَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ أَبُو نَوَاسٍ فِي بَعْضِ دَعَاوِيهِ هَذِهِ يَتَّجِنُ وَيَعْبَثُ عَلَى
عَادَتِهِ، وَلَا سِيَا أَنَّهُ كَانَ فِي أَثْنَاءِ هَذَا كُلِّهِ لَا يَنْسَى أَنَّهُ فَارِسِيٌّ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ
وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا خَشِيَةَ أَنْ يُهْجَى بِهَا. فَكَانَ يَتَعَاجَمُ فِي شَعْرِهِ كَمَا سَنَرِي،
وَقَدْ ذَهَبَ فِي آخِرِ أَمْرِهِ إِلَى هَجْوِ الْعَرَبِ أَجْمَعِينَ، وَاسْتَنَّ فِي الشَّعْرِ غَيْرَ سَنَةِ
شَعْرَتِهِمُ الْأَقْدَمِينَ .

ملئقى التيارات

لقد كان المسلمون فى صدر الإسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية إلى قبيل زوال الدولة الأموية تعدو المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف فى الإمامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهاد فى المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام إلا فى أواخرها .

فلما استقرّ الأمر للعباسيين صرفوا همهم عن الفتوح إلى توطيد دعائم الإمبراطورية العظيمة التى آلت إليهم ، فلم يعرف لهم جهادٌ لنشر الدين وتوسيع حوزة الإسلام ، وإنما كانت حروبهم قمعاً لفتنة فى الداخل أو دفعاً لنكث العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج . وفى ظلال هذه الحال من إثارة السلام ومداومة الاحتجاج والاستجمام ، تعددت المرافق وكثرت الأرزاق واستبحر العمران واتسعت الحضارة ، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم على تحرّى ألوان المعرفة والتطلع إلى بعيدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبى جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية فى المنطقيات والرياضيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصرته الفرس للدعوة العباسية أن أحلهم خلفاء بني العباس المحلّ الرفيع وردّوا عليهم اعتبارهم . لقد أدب الفرس في يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفاء والعرب لا سيّد ولا مسود ، عقى الانقلاب العظيم على القوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا إلى أسنى المناصب في الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتاباً ووزراء ، ومن اليهود والنصارى تراجمه وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل . ولا شك في أن السياسة الجديدة التي أخذت بها الدولة العباسية في المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعاً على امتزاج الحضارات وتزواج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيراً كبيراً ، وكذلك دخل عليهم منه شراً مستطير . فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظير أهل الهند ، وأدّاهم هذا كله إلى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عاداتهم في أول أمرهم ، من اصطناع الترف في اللبس والمأكل والاستهتار في الشرب ، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن الكلف الذي لا بعده كلف يعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى في الأمور الدينية والعقائد الإيمانية

والأمثلة على ذلك في شعر أبي نواس كثيرة لا سيما شعره بعد زيارته لبغداد. فمن تعاجمه في شعره وتعصبه للفرس قوله في صفة دنانِ الحمر ومجانى

الكروم :

إذا قام فيها الخالبون أتهم بنجلاء ثقب الجوف دَرَّتْهَا الحمرُ
مسارحها العربيُّ من نهر حَرَصِرٍ ففطرُ بُلِّ فالصالحيةُ فالعقرُ
تراث أنوشروان كسرى، ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكرُ
ثم قوله في صفة الغناء الذي يستحبه على الشراب المعتق :

فاسقنيها وغنِّ صو تَأْ - لَكَ الخَيْرُ - أعجما
ليس في نَعْتِ دمنةٍ لا ولا زَجْرٍ أشاما

وقوله يتمنى لو كان الأكَسرة أحياء وكان نديمهم :

فلورُدِّ في كسرى بن ساسان روجه إِذَنْ لاصطفاني دون كلِّ نديم

ومثلها هذه الأبيات الرائعة في صفة دار من الدور الفارسية القديمة في ساباط ، وقد شرب فيها الشاعر وصحبه بين آثار من سبقوا من الندماء الغطرفة أبناء فارس ، ذا كراً لأيامهم ، ناظراً إلى الأطلال الناطقة بحضارتهم ، مجدداً بالشراب فيها عهدهم :

ودارِ ندامي عطلوا وأدجلوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحبٌ من جرِّ الرقاق على الثرى وأضعفَتْ ريحانِ جنِّي وياس
حبستُ بها صحبي ، فجددتُ عهدهم وإني على أمثالِ تلكِ الخابس
ولم أدْرِ منهم غيرَ ما شهدتُ به - بشرقِ ساباط - الديارِ البساسبُ
أقمتُها يوماً ، ويومين بعده ، ويوماً له يومُ الترحلِ خامس
تدار علينا الكأسُ في عسجديةٍ حبَّتْها بأنواعِ التصاويرِ فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهى تدرِّمها بالقسيِّ الفوارسُ

فلخمر ما زرت عليه جيوبها ولماء ما دارت عليه القلائس
وكذلك احتفاله بيوم النيروز من الأعياد الفارسية :
يُباكرُنا «النوروز» في غلس الدجى بنور على الأغصان كالأنجم الزهر
يلوح كأعلام المطارف وشبهه من الصفر، فوق البيض والخضر والحمر
إذا قابلته الشمس أو ما برأسه إلى الشرب أن سُروا ومال من السكر

إسقنا ، إن يومنا «يوم رام» ولِ «رام» فضل على الأيام
في رياض ربعية بكر النور عليها بمسهل الغمام
فتوشت بكل نور أنيق من فرادى نباته وتوأم
فترى الشرب كالأهله فيها يتحسون خسروى المدام
والنيروز أو النوروز عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول
الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية «يوم جديد» لأنه يؤخذ بمقدم الربيع
الذى يرد على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه في التنزه
والشرب في الرياض . ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر
من شهور الفرس ، يلذون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ،
كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحب أن يتزيا بزيمهم ويظهر للناس
أنه منهم .

ولاشك في أن الحركة الشعوبية كان لها كبير أثر في ذلك . فقد كان
للعرب افتخار بأنهم خير أم الأرض قاطبة ، لما نشأوا عليه من الاستقلال

والعزة والمنعة في جزيرتهم ، وللصفات والعادات التي شاعت بينهم من إكرام الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الأنساب ، وما كان عليه الأعراب من البديهة وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اختصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن البيان ، ثم ما كان من نشأة الإسلام فيهم وانتشاره على أيديهم . وقد نقلت هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتفجعة المتكررة . وزادها ثقلاً أنهم لم يرتضوا دعوة المفكرين المعتدلين إلى التسوية بين المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . فلم يلبث هذا التعنت أن ثارت عليه نائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الإسلامية فغالوا مثل مغالاتهم في الخط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا يهجنون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة في جاهليتهم ، ويعددون مثالبهم من وأدم الولد خشية الإملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ، ويذرون عليهم جذب الأرض وبدواة العيش ، وذهابهم في المن من أجل طعام أطمعوه أو معونة بذلوها . وراحوا في الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان عند الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر وسحرها ، وصناعات الصين وفنونها ، وحضارة فارس وترافها . وجعلوا العرب من ذلك أقل الأمم شأناً في كل شيء ، وأضعفها استحقاقاً للتفاخر .

ونحن نرى شاعرنا أبا نواس في شعره دائم التعريض بالأعراب ، والمقابلة بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية في حاضرها وماضها :

دَعِ الرَّسْمَ الَّذِي دَثَّرَا يقاسى الرِّيحَ والمَطْرَا
 أَلَمْ تَرَ مَا بَنَى كَسْرَى وسابورَ بْنَ غَبْرَا
 مَنَازَهُ بَيْنَ دَجَلَةَ وَالْأَمْرِ فَمَرَاتِ تَفْيِآتِ شَجْرَا
 بَارِضٍ بِأَعْدِ الرَّحْمَا نُ عَنْهَا الطَّلْحَ وَالْعُشْرَا
 وَلَمْ يَجْعَلْ مَصَايِدَهَا يَرَابِيعَا وَلَا وَحْرَا
 وَلَكِنْ حَوْرَ غَزْلَانَ تَرَاعَى بِالْمَلَا بَقْرَا
 وَإِنْ شَتْنَا حَثْنَا الطَّيِّ رَ مِنْ حَافَاتِهَا زُمْرَا
 وَإِنْ قَلْنَا اقْتَلَوْا عَنْكُمْ يَبَا كَرِ شَرِبُهَا الْخُمْرَا
 فَذَلِكَ الْعَيْشُ لَا سَيِّدَا بِقَفْرِتِهَا وَلَا وَبْرَا

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التي لا تمت إلى بدو العرب بسبب ، وإنما هي من الخواضر الفارسية وطن « بنى الأحرار »^(١) كما شاعت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

ببلدة لم تصل كلب بها طبياً إلى خباء ولا عبس وذبيان
 ليست لذهل ولا شيبانها وطناً لكنها لبني « الأحرار » أوطان
 أرض تبنى بها كسرى دسا كرهه فما بها من بني الرعاء إنسان

(١) (إن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم « الأحرار » و « الأبناء » وكانوا يمدون سائر الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم علو أيدي العرب - وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً - تعاطفهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالحاربة في أوقات شتى) كتاب الفصل لابن حزم ج ٢ ص ٩١

وما بها من هشم العرب عَرَجَةٌ ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جُلنارٌ قد تفرَّعه آسٌ ، وكلَّه وردٌ وسوسان
فإن تنسَمَ من أرواحها نسماً - يوماً - تنسَمَ في الخيشوم رِيحانٌ

وكان مما يبغضه في العرب أنهم لا يفتنون يتفاخرون ، إلا يكن من
العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، فينبهم وبين أنفسهم . فهم
أبدأ في شقاق ونقارٍ من العصبية القبليّة ، لا يجتمع رجلان من قبيلتين حتى
يقوم بينهما الفخار وينتهي بهم آخر الأمر إلى التعدي والشجار . ويقول
أبو نواس إنه من أجل هذا يؤثر حبة الأعجام ومنادمتهم :

نادمتهم أرتاضُ في آدابهم فالفرس عدوى سكرهم محسومٌ
متوقِّرين ، كلامهم ما بينهم ومزميزين خفاؤهم مفهومٌ
ونفارس الأحرارِ أنفسُ أنفسٍ ونغارهم في عشرةٍ معدومٌ
وإذا أنادم عصبَةً عربيةً بدرت إلى ذكر الفخار تيمٌ
وعدت إلى قيسٍ وعدت قوسها ، سويت تيمٌ وجمعهم مهزوم !
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم شرّاً ، فمنطق شرهم مزومٌ
لا يبدخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العربُ اعتدت تسليمٌ
وجميعهم لي - حين أعدد بينهم - بتدليلٍ وتهيبٌ موسومٌ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانية
عند وصفنا لحياته في دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا .

وأما إشاراته الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم فغير قليلة .
ولا غرو فقد كان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور أول خليفة قرَّب
المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدمين في هذا العلم نوبخت
المجوسى المنجم الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم
« أبو نواس » أوثق اتصال . وقد تُرجمت الكتب فى الفلك وهيئاته
وأُخرجت إلى الناس فمظروا فيها وتعلقوا إلى علمها .

وقصيدة شاعرنا فى مدح الوزير الشيخ يحيى بن خالد البرمكى مثال إذا
سقناه وحده فإنه يُغنى عن كل مثال بعده . قال يصف ممدوحه بالسخاء
والشجاعة :

صورة المشتري لدى بيت ثور الـ	يل والشمس أنت عند انصباب
ليس (زاوئش) حين سار أمام الحـ	وت والبدر إذ هوى لانصباب
منك أسخى بما تشحُّ به الأـ	فس عند انتقاص درّ الحلاب
لا وبهرام تستقل به العقـ	رب بالليل زائداً فى الحساب
منك أمضى لدى الحروب ولا أهـ	ول فى العين عند ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاوئش) Zeus لفظ يونانى وهو المشتري فى الكواكب
السيارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات .
وأما (بهرام) فهو المزيخ بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية إله الحرب .
ومثل ذلك قوله يصف الحر بالقدم :

تُخَيَّرَتْ ، والنجوم وقف لم يتمكن منها المدار
وكان أصحاب الفلك يقولون إنه كان لدوران الفلك ابتداءً كان قبله ساكناً .
وفي كلام أبي نواس أيضاً إمامٌ بمبادئ الطبيعيات التي كانت بسبيل
الشيوع في أيامه . فمن ذلك تصرفه في الكلام عن الطبائع الأربع التي هي
الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في قوله هازلاً يستفتى (أبا عيسى جبريل)
في الخبر :

سألت أختي «أبا عيسى» و «جبريل» له عقل

فقلت «الخمر تعجبنى» فقال «كثيرها قتل»

فقلت له «فقدّر لي» فقال وقوله فصل :

«وجدت طبائع الإنسا ن أربعة هي الأصل

فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل»

وقوله هاجياً زهير المعنى :

قلّ زهير إذا اتسكا وشدا «أقلل أو أكثر» فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار»

ففي ذلك التفات إلى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشيء إذا

زاد في البرد تحول إلى الحرارة بدليل أن الصندل الأبيض إذا أفرط في حقه

عاد حاراً مؤذياً .

وأخيراً يقع القارىء في شعره هنا وهناك على ألفاظ من مصطلح المتفلسفة
مثل قوله يصف ما صيره إليه تبريح العشق من التحول والضحى .

تَرَكْتُ مَنِيَّ قَلِيلاً مِنْ الْقَلِيلِ أَقْلاً
يَكَادُ لَا يَتَجَزَّأُ أَقْلٌ فِي الْفِظِّ مِنْ « لَا »

وقد زعموا أن إبراهيم النظام المعتزلي لما أن سمع ذلك منه قال له : « أنت
أشعر الناس في هذا المعنى . والجزء الذي لا يتجزأ ، منذ دهرنا الأول نخوض
فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت في بيت واحد » .

ولقد كثرت في الحواضر الإسلامية الشكك والدهريون ، ومروءجو التعاليم
اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من التنوية وغيرها من مذاهب الفرس والاسيا
المانوية ، فكانوا يتصلون بالناشئة يزينون لهم المروق والاحاد ويفسدونهم .
ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذ لكانت بلائ الإسلام بهؤلاء أشد
وأسى . ومن هؤلاء الدعاة إلى الزندقة في البصرة عبد الكريم بن أبي
العوجاء . وقد تصدى له شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد فقال له مهدداً متوعداً :
« قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستنزله وتدخله في
دينك . فإن خرجت من مصرنا (يعني البصرة) وإلا قتلت فيك مقاماً آتى
فيه على نفسك » . وكذلك تعاون وإمام المعتزلة واصل بن عطاء على المهتف
بالشاعر الأعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة . فلما رجع إليها عند
موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية ، وظل بعيداً عنها إلى

أن مات المعتزلي في أواخر سنة ١٤٣ . ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعايتها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلها على حروبها وكثرة القتال لمناهضتها ، ومن مصنفاته كتاب فيه ألف مسألة للرد على المانوية . كما أنه صمد من معتزلة الجليل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد ، ولُقّب بالعلّاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين . وكان للعلّاف بصرٌ بالفلسفة اليونانية وكان في احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها . ولعل في الأبيات التي هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحق صورة لما كان شاعرا في أوهام الناس عن عقائد المانوية في ذلك العصر :

جالست يوماً « أباناً »	لادّرَ دَرٌّ « أبانٍ »
ونحن حَضَرَ رواقِ الأُ	مير بالتهروان
حتى إذا ما صلاة ^(١) الأُ	ولى دنت لأذان
فقام ثمَّ به ذو	فصاحة وبيان
وكلمًا قال قلنا ^(٢)	إلى انقضاء الأذان
فقال ^(٣) : « كيف شهدتم	بذا ، يغير عيان ؟
لا أشهدُ - الدهر - حتى	تعاين العيان »
فقلتُ : « سُبْحانَ ربِّي ! »	فقال : « سُبْحانَ ماني ! »

(١) صلاة الأولى يعني بها صلاة الصبح (٢) كلما قال المؤذن قولاً رددناه بعده

(٣) أي فقال أبان اللاحق كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا إله إلا الله ، » أشهد

أن محمداً رسول الله » ولستم للأمر شهود عيان

فقلتُ : « عيسى رسولٌ » فقال : « من شيطان »
فقلتُ : « موسى نبيٌّ » مهيمِنُ المَنانِ
فقال : « ربك ذو مَقَّةٍ لَمَّةٍ إِذَا ولسان ؟
أَنفَسُهُ خَلَقْتَهُ أَمْ مَنْ ؟ » فَقُمْتُ مَكَانِي
عَنْ كَافِرٍ يَتَمَرَّى ^(١) بِالكَفْرِ بِالرَّحْمَنِ
يُرِيدُ أَنْ يَتَسَوَّى بِالْعَصْبَةِ . الْحِجَانِ
بِعَجْرِدٍ وَعِبَادٍ وَالْوَالِي ^(٢) الْمُهْجَانِ
وَقَاسِمٍ وَمُطِيعٍ رِيْحَانَةَ النَّدْمَانِ

وكانت خراسان كعهدا منبت الكثير من الدعوات ومرتعاً لدعاتها .
وقد ظهر فيها في أوائل عهد الخليفة المهدي دعوى من أهل مرو يسمى حكيمًا ،
وكان أعور قصيراً مشنوء الخلق ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجهاً من
ذهب فتقنع به لئلا يرى ، فلقب بالمتنع . وكان يدعى الألوهية فيزعم أن الله
خلق آدم وتحول في صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا
إبليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحول في صورة نوح وهلم
جراً إلى أن حل في أبي مسلم الخراساني ومن بعده حل فيه : وهو يقول
بالتناسخ ، وكانت تعاليمه إباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع إليه خلقٌ

(١) يتمرى بالكفر يتمرن به أى يتخذ زينة

(٢) الوالي هو والية بن الحباب أستاذ أبي نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم

بن زنفلة ومطيع بن لياس

كثير غلب على عقولهم بالتؤيّهات . ولم تتمكن جيوش الخليفة منه إلا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضايقوه واستألوا معظم أصحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله ، فشرّب وإياهم السمّ ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول « من أحبّ أن يرتفع معي إلى السماء فليلقِ نفسه معي في هذه النار » . وكان ذلك مما زاد في أمتنان من بقي من أصحابه . وبلغ من شيوع الزنادقة في خراسان وفارس والعراق في أواخر أيام المهدي أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجدّد في طلب الزنادقة وولى أمرهم « عمر الكلواذي » ليفرغ لهم ويمعن في البحث عنهم في الآفاق لينكل بهم شرّاً تنكيل ، ولما مات ولى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بمخدويه » .

ويخلص من هذا جميعه أن حركة الزنادقة كانت من الشدة بحيث دعت إلى مقاومتها بقوة السيف وبقوة الحجّة . وكان المهدي صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفي ذلك يقول المؤرخ المسعودي : « إن المهدي أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ومرفيون ، مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والقهلوية إلى العربية ، وما صنّف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد مجرّد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية . فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف

الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكِّين «
وكان أبو نواس ممن اشتهوا الكلام وجالسوا المتكلمين . ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيره ، فان هذا العلم إن يكن بإضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض إيماناً على إيمان ، فإن تعرَّضَ مثل شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أداه الى شيء من الزندقة . ولقد أقرَّ على نفسه بها في هجائه لابراهيم النظام المعتزلى :

قولاً لإبراهيم قولاً هتراً غلبتني زندقةٌ وكُفراً

ولقد استمر الجدل بين القائلين باختيار الإنسان لأفعاله، وحرية إرادتها وقدرتها عليها ، وهم المعروفون بالقدريَّة ، وبين الذين لا يُثبتون للإنسان فعلاً ولا قدرة على الفعل ، ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجزرية . وهو جدال ذو خطر كبير لاتصاله بالعدل الإلهي من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعيت أبا نواس متابعتهم ، فلم يلبث أن وقف من البحث عند حدِّ التجربة المادية والمشاهدة الحسية في قوله :

يانظراً في الدين ما الأمر ؟ لا قدر صحَّ ولا جبر

فما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموت والقبر

وحسب القارى في زندقته شهادة فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعرى إذ يقول في رسالة الغفران : « ولا أرتاب في أن دعبلأ كان على رأى

الحكَمَى (أبي نواس) وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة «
وفي موضع آخر منها « وقد اختلف في أن أبا نواس ادعى له التأله ، وأنه كان
يقضى صلوات نهاره في ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »
على أن أبا العلاء على عادته في التشكك وعدم الجزم يقول في نفس الرسالة
« وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن
قبله ووصفهم بالزندقة . وسرايرُ الناس مغيبية وإنما يعلم بها علام الغيوب »
وأيًا كان الرأي ، فإن الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول في هذه الموضوعات
ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبي العلاء ، بل تبرز ما استطاع
من أن يذهل فيها عن نفسه عملاً بوصيته لغيره :

مُتْ بَدَاءَ الصَّمْتِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ أَلْجَمَ فَأَهْ بَلْجَامِ

على أنه مع ذلك كان لا يملك لسانه من الخروج عن حد الأدب والمساس
بحرمة الدين وهو في حالة سكر أو في سياق مجنون .

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ
الحديث بالبصرة ، إذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث
ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة
وليمض » . ففعل الناس ذلك ، حتى انتهى الى أبي نواس ، فقال : « سل يا فتى »
فتعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنا روينا
عن زرارة بن أوفى
قال: « مَنْ مات محبًّا
أترى ذلك صواباً
عن سعيدٍ عن قتاده
أنَّ سعد بن عبادة
فله أجرُ الشهادة ؟

فالتفت إليه الشيخ مغضباً وقال: « اغرب عني يا خبيث، والله لا أحدثك بعد ذلك، ولا أعرف وجهك ». فقال أبو نواس كالمحتج: « والله لا أتيتُ مجلسك وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث »

وعلى هذا النسق أخبار أبي نواس كلها حين يُفرض الجون عليه. وكذلك أشعاره حين تنازعه نفسه الآئمة إلى الحمر، وتدفعه شهوته الفاسدة إلى الاستهتار بالذات:

ألم ترّني أبحتُ اللهوَ نفسي
كأني لا أعود إلى معادٍ
وإني، واعتكفت على المعاصي
ولا أخشى هنالك من قصاصٍ
وكذلك قوله مجادلاً:

وملحة باللوم تحسب أنني
بكرتُ على تلومني فأجبتها
فدعى الملام فقد أظمتُ غوايتي
ورأيتُ إتياني اللذادة والهوى
أحرى وأحزم من تنظر آجلٍ
ما جاءنا أحدٌ يخبر أنه
بالجهل أوتر صحبة الشطار
« إني لأعرف مذهب الأبرار
وصرفتُ معرفتي إلى الإنكار
وتعجّلي من طيب هذى الدار
علمي به رجمٌ من الأخبار
في جنةٍ مَنْ مات أوفى نارٍ »

وقد كان الجأز عند شاعرنا فاسمعه هذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الأخير ، قال له الجأز : « ياهذا ، إن لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في نفسك ، ودع الإفراط في المجون ، واكتمها » . فقال أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خوفاً . وإن قضى شئى كان » . فسمى الخبر الى الوزير الفضل بن الربيع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا إلا أسبوع حتى حبس .

بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقيه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طوال حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه ، مثل قوله :

استقنيها ملاً وفاً لا أريد المنصفاً
وضَع الزقَّ جانباً ومع الزقِّ مصحفنا
واحسُّ من ذا ثلاثةً واتلُّ من ذلك أحرفنا
خَيْرُ هذا ، بِشَرِّ ذَا ، فإذا اللهُ قد عفا

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو . وقد ألقى أبو نواس في سجن الزنادقة للمرة الأولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقى فيه حماد عجرد فقال في وصفه : « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، فإذا حماد عجرد إمامٌ من أئمتهم ، وإذا له شعرٌ مزوجٌ يتين يتين يقرءون به في

صلاتهم » . ولا شك عندنا في أن القارى لهذا الحديث يستشعر منه استنكار
الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد مجرد حتمية لا هو . وأكبر الظن
أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيدة ، وإنما كان يظهر الزندقة تظرفاً .
وليس هو في ذلك نسيج وحده بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح
العصر . وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن منذر في محمد
ابن زياد :

يا ابن زياد ، يا أبا جعفر ! أظهرت ديناً غير ما تخفي
مُرَدَّقُ الظاهرِ باللفظِ في باطنِ إسلامِ فتى عَفٍ
أستَ بزندقِ ، ولكنا أردتَ أن تُوسَمَ بالظرفِ

الحب الأول والاخير

كل جنس مدفوع إلى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية
الأمرة التي أودعها خالق النسم كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . وإذا
كان أمر من الأمور في غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على
الأحياء من سلطان . ولا بدع فهي صاحبة الشأن الأول في نظام الوجود ،
وقد اقتربت منذ القدم بدوافع الإنسان الأولية، ثم لا يست أولى شعائره
الدينية .

فهذه الغريزة عميقة أيما عمق ، وعمامة كل العموم ، وهي تشغل حيزا
كبيرا من اهتمام الإنسان وإن يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل
وهي بعد مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسى والعاطفى
والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة
متأثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما أن المغلوب لا يبرح على كل
حال حتى الجذوة كامن القوة
والصبي إذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد

يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسةً يُشبع بها هذا السعار الجنسي ويرفه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسديةً على حالها ، فإن كثافتها لتلطف ، وإن حواشيتها لتتلون بألوان الطيف ، وتسر بل أعطافها بأبراد الخيال ووَشَى الشعر . وذلك إلى أن المرء له إلى كيانه العميق السفلى كيانٌ رفيعٌ علوي ، يقتضى التعاطفَ بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاجٍ ومزاج . وهذا التجاذب الخفي بين الأرواح مما يهون على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل أنفسهم أطيب ما تكون بالبذل والمفاداة وإنكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السماوى وذلك التقرار الأرضى صلة غير مقطوعة ، كالزهرة أصولها مطمورةٌ في حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظة ما تزكوه الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء ، بعد كل وجبة . فإذا ما ترقى بها الإنسان إلى الحب كان شوقه دائماً ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتُنقع غلته ، بل لعله مع القرب أبقي شوقاً وأشدَّ هيأما على حد قول ابن الرومى :

إليها - وهل بعد العناق تدان !	أعاقبها - والنفس بعد مشوقة
فيشتد ما ألقى من الهيام	وألثم فاهها ، كى تزول حرارتى
ليشفيهِ ما ترشف الشفتان	وما كان مقدار الذى نبي من الجوى

كان فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان
وهذه الصورة أصح مثال على الحب فى حده الطبيعى السليم . فليس فيه
إنكار الزهاد للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق
المتصوفة إلى ما وراء الحس وحنينهم إلى الاتحاد بالروح والفناء فى المحبوب .
وما كان شاعرنا أبو نواس على استهتاره كسائر الخلقاء الجحان فى اللهو
والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذى يخرج وقد بلغ مبالغ الرجال عما للحب
الطبيعى بين الجنسين من غلبة على الحس وسلطان على النفس .

فاتفق له أن كان فى المربد جالسا مع شباب من آل ثقيف يتنزهون وهو
ينشدهم من أشعاره ، إذ مرت بهم جارية أفرغت فى قالب الجمال ، سوية
الخلقة بديعة التقطيع ، ميساء معتدلة القوام .

فوق القصيرة ، والطويلة فوقها دون السمين ، ودونها المهزول
وقد أبرزت عن وجهه وضّاح ، أزهر اللون ، رقاف البشرة ، حلو الملامح ،
عبرى المعنى . فجعل ينظر مأخوذاً إلى ذلك المنظر الرائع والحسن البارع
وهى ماضية فى طريقها لا تلتفت ، قاصرة الطرف ، مسبلة الأهداب .
وما زال يتبعها نظره إلى أن غابت عنه . فقال له أصحابه : « خرجت عن
حدك الذى كنت تنتسب إليه يا أبا نواس » يشيرون إلى ما عرف عنه من
الغزل بالمدكر . فسكت لحظة لا يجيب ، ثم أنشأ يقول :

إنى صرفت الهوى إلى قرير لا يتحدى العيون بالنظر

إذا تأملتَه تعاضمَكَ ۥ إقراراً في أنه من البشر
ثم يعود الإنكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصُّورِ
مباحةً ساحةً القلوبَ له يأخذُ منها أطيبَ الثمرِ

وبقي بينهم ساهماً سحابةً نهاره ، حتى إذا أظلم المساء استعجل العودَةَ
إلى بيته ليخلو إلى نفسه . لقد انطبعت هذه الصورة العابرة في قلبه بخطوط
من نورٍ ونارٍ ، ولن تفارقه في ليلٍ ولا في نهارٍ . وهيهات بعد اليوم أن يطيب
له نومٌ أو يقرَّ له بال . إن أبا نواس اليوم غير أبي نواس الأمس . هذا الرجل
الواقعي المستغرق في الحسِّ ، والمماجن المستهلك في اللهو والسكر ، والخلِّي الذي
لم يعرف الحبَّ ، قد شُغف اليومَ حبًّا ، وأصبح بخيال هذه المرأة مستهماً
صبًّا . فليس شيء من مقان الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم
الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجدَه بها وحنينه إليها وهو لا يعرفها .
ولقد طال سؤالُ أبي نواس عنها وتسمُّه لأخبارها وجلية أمرها ، فلم يقع بعد
اليوم الذي رآها فيه على خيرٍ منها . فما أحالهُ ذلك عن قصده ولا حبس من
عنانهِ وصرفه عن هواهِ . وكان يقول لمن يلحاه في لجج حبه ودأبه في طلبه :
كما لا ينقضى الأربُّ كذا لا يفترُّ الطلبُ

وتناقل أهلُ البصرة حال شاعرنا في حبها وأقواله فيها وأكثرها ذكره
في كل محفلٍ ومجمع .

ولم تكن هذه العشوقة المجهولة إلا « جناناً » جارية آل عبد الوهاب

التعقبي ، وقد انفقت الأقوال على أنها كانت مقدودة حلوة بدبعة الحسن ،
أديبة ظريفة عاقلة ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . كما انفقت الأقوال
على أن أبا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها .

ولقد ذكرت لها نساء من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن فيعبثن به
ويمازحنه . فخرجن يوماً وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما
رأها كاد عقله يذهب ، وتخيّر ، وأقبل وأدبر ، فدنّت منهن واحدة إليه .

فقال — « يا فتى ، أنت أبو نواس ؟ » .

فقال لها متلهفاً — « نعم ، أنا المعنى بمن لا ترثي لشكايتي » .

فقال كلمتهكمة — « بالله أنت عاشق ؟ » .

فلم يمهلهما وبادر مؤكداً — « إي والله ! » .

فتضاحكت — « لمن ؟ » .

فأطرق مردداً — « لمن لا يعلم ما بي ، ولا أعلم من هو » .

فقال في خبث — « فاجعلني رسولاً إليه ، ففعل الله أن يمن عليّ »

وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هي والله التي معك » وأوماً إلى جنان .

فانصرفت عنه إلى جنان وهي تضحك . فأعلمتها بما دار بينها وبينه .

فأنكرت ذلك عليها وقالت : « مثل هذا الكلب تطمعيه في » وتولت

مغضبة .

واتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسأل عن اسمها

فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضياً عن يومه ، قائماً بما وصل إلى علمه ، وهو
يترنم « تبدت لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه
الواقعة ، وصوّر لنا إقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة في أتم
زينته ، يحففن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضمخات بالعب يرزلن من غرّف الجنان
راضعتنّ من الصبا كأساً عقدن بها لساني
أقبلن من باب الرصافة كالتماثيل الحسان
يحففن أحوراً كالغزاة لأمير إمرار العنان
يمشى بردف كالتقا يختال تحت قضيب بان
فاذا انجلت بغاملي كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرف بآل عبد الوهاب الثقفي ، فعاشرهم ونادهم
توصلاً لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن مناذر الشاعر الذي كانت
المودة بينه وبين عبد الحميد بن عبد الوهاب الثقفي مضرب المثل ، وكان أحدهما
لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل في ذلك أنهما كانا يسمران أحياناً إلى
الصبح ، فاذا انصرف عبد الحميد شيعه ابن مناذر إلى منزله ، فاذا بلغه
وانصرف ابن مناذر شيعه عبد الحميد .

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفق به
الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاقت صدره ، وصار كالمغلوب على أمره يودده
أن يمسك على ما في نفسه :

لأبيحن حرمة الكتمان راحة المستهام في الاعلان
قد تصبرت بالسكوت وبالإبط راق جهدى فتمت العيمان
تركتني الوشاة نصب المشيرين وأحدوثه بكل مكان
ما أرى خالين للسر إلا قلت ما يخولان إلا لسانی
ثم أنشأ يشبب باسمها ويظهره حتى عرف بها واشتهر بحبها . ومن إشارته
إلى اسم « جنان » وصفتها قوله :

لما تكشفت عني أني كلِف كَشَفْتُ أيضا لهم عن به الكلف
جيمٌ وَجَدْتُ لها نونين ، بينهما - لمن تهجى اسمها أو خطه - ألفٌ
يضمه من ثقيف بعض دورهم ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف
واتفق أن تزوجت عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي برجل من ثقيف يدعى
محمد بن خالد^(١) فصارت إليها جنان وصيفة لها . وكانت مولاة جنان موسرة ،
وعلى حظ وافر من الجمال كأخيها عبد المجيد الذي قيل إنه كان أحسن الناس
وجها وأدبا وملبسا . فلم تزل تقرر بها امرأة يقال لها « سرور » حتى ارتضت
الرجل وهو أبو أولاد خمسة ، ثم هو فوق ذلك لم يكن لها كفوا ، بالنسبة
لجلال قدر أبيها عبد الوهاب وموضعه من العلم ، وما لأمها « بانة بنت أبي

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٧٧ من الجزء ٢٠ أن عمارة تزوجها محمد بن خالد وجاء
في الصفحة ٣ من الجزء ١٨ أن زوجها عبد الرحمن الثقفي . وقد أخذنا بالقول الأول لأنه
يطابق ما جاء في شعر أبي نواس . وأما الذي ورد في الصفحة ٤ من الجزء ١٨ من أن
عمارة امرأة عبد الوهاب فهو خطأ صريح وصحته اينة عبد الوهاب الثقفي .

العاصم الثقفي « من بسطة الثروة ، فضلا على أنه لم يكن هواه فيها وإنما الشره إلى ما في يدها .

ولقد شاء لمحمد بن خالد حفظه العاثر أن يكون جاره أبان اللاحق الشاعر وأن يكون عدوا له ، فنظم في موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجوها فيها ويحذرهما منه ويحفرها إلى مفارقتة :

لما رأيتُ البزَّ والشاره	والفرشَ قد ضاقت به الحاره
واللوزَ والسكرَ يُرَمَى به	من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا الملهين لم يتركوا	طبلاً ولا صاحبَ زماره
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبة»	محمدٌ زُوجَ عمّاره ! «
لا عمرَ اللهُ بها بيته	ولا رأته مدركاً ثاره
ماذا رأيت فيه؟ وماذا رجيت؟	وهي من النسوان مختاره
أسود كالسفود يُنسى لدى الـ	تنور ، بل محراك قياره
يُجرى على أولاده خمسة	أرغفة كالريش طياره
وأهله في الأرض - من خوفه	إن أفرطوا في الأكل - سياره
ويحك! فرى واعصبي ذاك بي	فهذه أختك فراره
إذا غفا بالليل فاستيقظي	ثم اطفري إنك طفاره

ويقال إنه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هذه عمارة ، فعلت في نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهتها مالا عظيما .

وكان زوج عمارة هذا بخيلاً شديداً البخل ، حريصاً غاية الحرص ، فيه
أثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل الأدب ، فليس لأبي نواس
أو غيره من الشعراء اتصالٌ ببابه أو سبيلٌ إلى قلبه . فلا جرم يستولى على
عاشق جنان عارضُ اليأس وشعورُ القهر :

رأيت هواي سيرته الوجيفُ وتخرُّبني إذا اعترضتُ ثقيفُ
فإن آتَى - وذلك بعد كدٍ - فدارُ « محمد » ثم الوقوفُ

ولقد زاد محمدٌ أن عمد إلى بسط لسانه في أبي نواس والتسميع بمثالبه
وعوراته . فلم يسع العاشق إلا السكوت والإغضاء كرامةً لهوى جاريته
الحسنة :

سأترك « خالداً » لهوى جنانِ وإن جلّ الذي عنه أتاني
فقلّ من بعد ذما شئتَ ، أوزدُ فقد أمسيتَ مني في أمانِ
لقد أغلقتَ بابك دون ظبي ختمتَ بمقلتيه على لساني

ثم إن هذه المبالغة من مولى جنان في سترها والغيرة عليها غيرة لم تؤثر
عنه على زوجه ، ألفت في روع الشاعر أن مولاهما إنما يفعل ذلك لأنه يهواها :
مولى جنان وإن أبدى تجلده يهوى جنان فيرجوها ويخشأها
مولاته هي « بالمعنى » وحق لها ، والناس يدعونها « باللفظ » مولاهما
وكانت جنان مع هذا التضييق عليها لا تخلو من الغدو والروح لحاجاتها
وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصداً لها حيثما

ذهبت . فاذا شهدت عرساً لم يزل جالساً حتى تنصرف منه فيراها في ذهابها
ومنصرفها . وكان لا يراها إلا امتقع لونه ووثب قلبه في صدره لما يبدو من
جمالها في الحلي والحلل حتى لسكانها العروس :

شهدت جلوة العروس جنان فاستالت بحسبها النظاره
حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشاره
قال أهل العروس حين رأوها : « ما دهانا بها سوى عمّاره »
ويصور لنا أبو نواس في هذه الأبيات ما هو ملحوظ إلى أيامنا من
حرص النساء على عرض جمالهن في الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغائرنها .
ولقد صور الوهم له في هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره
من جنان ، ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيداً من جهتها وعمداً .
ويروى أن جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت
والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها إلا اغتمها حتى في المآتم . فلما مات بعض
آل عبد الوهاب الثقفي ، أشرف أبو نواس من دار على منزل الثقفين وعندهم
المآتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفي يدها خضاب ،
فلم يعنه من هذا المنظر الفاجع الأليم إلا النظر إليها سافرة الوجه كالبدر ،
واستملاح هذا المتناثر المتحدّر من دموعها كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين
لها كعيون النرجس ، واستظراف بنانها المخضوب كالعنّاب يواقع وهي تلتدم
خدين كالورد :

ياقرأ أبرزه ماتم يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدرّ من نرجس ويلطم الورد بعناب
لا تبك ميتاً حلّ في حفرة وابك قتيلاً لك بالباب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان خروجها الى عرس أو ماتم ، وقد لقيها أبو نواس مرةً خارجةً الى بعض الماتم بالبصرة وعليها قناعٌ وثي رقيق . فاتبها واحتمل على شهود الماتم . فلما حسرت في الماتم عن وجهها ذهل الشاعر - كدأبه - من حسننها ، وخيل إليه أن الماتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يامنسى الماتم أشجانهم لما أتاهم في المعزينا
حلت قناع الوشي عن صورة ألبسها الله التجاسينا
فاستفتنتهن بتمثالها فمن للتكليف بيكينا
حقّ لذلك الوجه أن يزدهى عن حزنه من كان محزوناً

واشتد وجد أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر إليها بمجامع عينيه إذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرفها . وكان قد يشرب أحياناً أقداحاً من النبيذ ليشد قلبه ويسكن ما به ، فلا يجسر مع ذلك على أن يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوماً إلى مولاها ، فشكاه إلى بعض إخوانه وسبه عندهم

ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه في هذه
الفترة في الملاينة والمسألة .

مَنْ سَبَّيَ مِنْ ثَقِيفٍ فَاتِي لِي أَسْبَهُ
أَبْحَتْ عِرْضِي ثَقِيفًا وَلَطَمَ خَدِي وَضْرِبَهُ
وَكَيْفُ يُنْكِرُ هَذَا وَفِيهِمُو لِي أَحِبَّهُ ؟
لَأَوْسَعَنَّ بِحَامِي عَبْدَ الْحَبِيبِ وَكَلْبَهُ
وَلَا أَكُونُ كَمَنْ لَمْ يُوسِعْ لِمَوْلَاهُ قَلْبَهُ
فَقَامَ يَدْعُو عَلَيْهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ حَسْبَهُ !!

وعمد أبو نواس إلى رسول أوفدها مرة إليها ، فقالت جنان لها منكرة :
« واضيعتاه ! لم يبق لي غير أن أحب هذا الكلب ؟ » وذكرته بالتقبيح
والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

كَسَّرَ الْحَبُّ نَشَاطِي وَلَقَدْ كُنْتُ نَشِيطًا
جَاءَنِي عَنْهُ كَلَامٌ زَادَنِي فِيهِ قَنُوطًا
« وَاضِيعَاهُ ، أَمْثَلِي يُرْتَجَى فِيهِ خَلِيطًا ؟ »
لَوَأْرَدْتَ الْوَصْلَ لَمْ تَج لَبُّ مِنَ الْفَخْرِ شَرْطًا
قَدْ رَأَيْنَا عَرَبِيَّاتٍ يُوَأْصِلْنَ نَبِيطًا

وكان أبو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان
يشبب بهن من النساء ، غير محدود منها . وكانت كلما ذكر اسمه عندها سبته

وقالت : « فعل الله بالحنث الكاذب في حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هذه الإساءات بأقوال له، منها :

جنان تسبني - ذكرت بخير -
وتزعم أنني مدق خنيث
وأن مودتي كذب ومين
وأني للذي أهوى بثوث
ولي قلب يغازعني إليها
وشوق بين أضلاعي حثيث
وقوله :

أتاني عنك سبك لي فسبني
أليس جرى بك اسمي ! فحسبي
تشابهت الظنون عليك في ذا ،
وعلم الغيب فيه عند ربي
وزالت عن هذا الماجن وقاحته واستطالته ، فاستخذى وركبه الحب
بالذلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوته للحياة وافتقانه بالدنيا ،
فهو زهد جنان فيه قد زهد في ملاذ الدنيا وكان لا يبصر عنها ، وهو نخلو
حياته منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة إليها .

زهدت جنان في الذي
رغبت إليها فيه نفسي
فرهدت في الدنيا وصا
رت منيتي في زور رمسي
وطويت عيني أن ترا
ني عينها ، وأمت جرمي
كيلا يروغ ذلك ١١
وجه المليح سماع حسبي
وطال على أبي نواس البلاء حتى لزمه الأرق وكاد يجن من الحب :

تناومت جهدي فلم أرقد
ونام الخلق ولم يسهد

وأنهض في طرباتٍ تهيئُ، وألزم طوراً فؤادى يدي
ولقد يهتف به داعى العقل أن يعدل عن هذا العشق الذى لا مطمع
من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعَّ جَنَانًا وَحَبَّهَا عَنكَ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا
لَا تَذَكَّرُ بِنَفْسِكَ ۱۱ مَوْتَ إِنْ كَانَ غَافِلًا
أَنْتَ إِنْ لَمْ تَمُتْ بِهَا ۱۱ مَآءٌ لَمْ تَنْجُ قَابِلًا
رُحِمَتْ نَفْسُكَ الَّتِي ذَهَبَتْ عَنكَ بِاطِلًا

ولكن هيهات أن يعدل عن حبها، إنه كالقضاء لا مفر منه ولا نجاء. ولقد
علمه حبها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن امتنع الصبر وعزّه الرجاء :

أَيَا مُلَيْنِ الْحَدِيدِ لَعْبُدُهُ دَاوُدُ
أَلَيْنَ فُؤَادِ جِنَانٍ لِعَاشِقٍ مَعْمُودُ
صَبِّ حَرِيضٍ مَهِيضٍ نَاءَ طَرِيدٍ شَرِيدِ
حِرَّانٍ يَدْعُو بَلْبَلٍ يَا لَوَحِيدِ الْفَرِيدِ !

وظاهر من هذا كله أن جنان لم تكن مثل سائر جواري العصر ماجنة
وقاح الوجه، متهتكة، بل هى كما وصفنا فتاة عاقلة رزان، عفيفة حسان
خفيرة قليلة الكلام، وذلك كله مع جمال المحيا وحلاوة الملامح ولطافة
التكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام. فالشاعر لا يبنى يجمع في صفتها أنها
نزهة طرف وفتنة قلب، وأنها ممتعة لا تلين لمريدها ولا تقر لما يصنع بها.

وجه جنانِ سَراةُ بستانِ مجتمعٌ فيه كلُّ ألوانِ
مبدولةٌ للعيونِ زهرتهُ ممنوعةٌ من أناملِ الجانيِ
لستُ أحظى به سوى نظري يشركني فيه كلُّ إنسانِ

ولقد أشار الشاعر الى أن لها جمالا « غير معربد » في ختام أبيات له من أمتع وأطبع ما قاله شاعر في وصف « الجمال » في أبدع مجاليه وأعجب معانيه، وهو ذلك الجمال الذي لا يزال في عينك يتجدد، يُطالعك منه بمحاسن ليست تنفد، وكأن بعضها ينتهي وبعضها يتولد، ثم هو كلما عاودت النظر إليه كان بالعود أحمد :

وذات خديٍّ مورِّدٍ فتانة المتجرِّدِ
تأمل الناس فيها محاسناً ليس تنفد
الحسنُ في كل جزءٍ منها معادٌ مردِّدِ
فبعضه في انتهاء وبعضه يتولد
وكلما عدت فيه يكون بالعود أحمد
فاشرب على وجه بدرٍ ريان غير معربد

ومضى الشاعر يشبب بها ويلهج بذكرها، ويشكو في شعره ما يجذبها وما يلقي في حبها، ولا مسألة له إلا عنها، ولا حديث له إلا حديثها، حتى عدله الناس في ذلك :

أما يَفنِّي حديثك عن جنانِ ولا تَبقِ على هذا اللسانِ ؟
أكلَّ الدهر قلتُ لها وقالتِ ؟ فكم هذا ! أما هذا بفانِ ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرهاً له نافرأ منه ، بل كان
يحمده لهم أحياناً ويستأنس به من الوحشة إليها ، لما يرد عليه في عذلم من
ترديد اسمها والإلام بذكرها :

إذا ما عاذلى سمّا لكِ قلتُ أعدّ ، كذا أعدّ
وشبّ لي باسمها عدلى وزدّني ، ثم زدّ وزدّ
نهارى كلّهُ وغداً وبعد غدٍ وبعد غد

وقد كانت جنان كأحرّ الحرائر من النساء تتحرج من قول الشعراء فيها
والغزل بها والتصريح باسمها. وقد انتهى الى الشاعر كرهاً لذلك ، فقال معتذراً :

طفلةٌ كالغزال ذات دلال فتنةٌ في النقاب والإسفار
أتمنى وما بكفىّ منها غيرُ مظلٍ وغيرُ سوء انتظار
ثم قالت « جهرت باسمي في الشع ر فهلاً كُنيتَ في الأشعار »
قلتُ « إن الهوى إذا كان باله بّ وهى قلبه عن الأسرار
أنا جارٌ لكم قريبٌ ، ولكن ليس يُغنى لديك حقّ الجوار »

ثم استخفه الوجد وولج به الحنين واهتاجه الشوق إليها ، فصاح صيحته :
جنانُ إن جدتِ يأمنائى بما آملُ لم تقطر السماء دماً
وإن تماريتِ أو تماديتِ في منعك أصبح بقرّة رِما
عَلقتُ منّ لوأتى على أنفُسِ باقين والغابرين ما ندما

ولقد فعلت هذه التوسلات في نفس جنان واستألتها ، فصارت أميل
لناحيته بعد نبوّها عنه . ولقد مرت به امرأةٌ ممن تداخل الثقيين ، فسألها

عنها وألحف في المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانسأقت إلى المبالغة والتزيد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتز الأوصال من الفرح فقالت : [قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم أني أسمع : « ويحك ! قد آذاني هذا الفتى وأبرمني ، وضيق عليّ الطرق بحدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبي بذكره والفكرة فيه حتى رحمته » ثم التفتت فرأيتني فأمسكت عن الكلام] .

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة موضوعة . ولما قامت المرأة أنشأ يقول :

يا ذا الذي عن جنان ظلّ يخبرني بالله قلّ وأعدّ ياطيب الخبر
قال : « اشتكتك وقالت : ما بليت به ! أراه من حينما أقبلت في أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به حتى يخجلني من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمني في الموضع الخلو لم ينطق من الخصر
ما زال يفعل بي هذا ويدمنه حتى لقد صار من همي ومن وطري »

واتصلت الرسائل بينهما حيناً . وكان من لهفته يتطلع في وجه الرسول عند عودته ولا يمهله ، ليسبق باللحظ والتوسم إلى ما يحمل له ، شراً أو خيراً ، قبل اللفظ به . ثم إنه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليلملي ساعة بالنظر إلى الموفد إليها . ويغلو به الوهم في ذلك حتى يجد رسوله عند الإياب من لديها أحلى طلعةً وأجمل نظرة ، فيقول :

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا ، فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنُ رَسُولِي وَفُرَّتْ بِأَخْبَرِ
فَكَلِمًا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهَا رَدَدْتُ شَوْقًا فِي طَرْفِهِ نَظْرِي
تَظْهَرُ فِي طَرْفِهِ مَحَاسِنُهَا قَدْ أَثَرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثَرِ
حُذِّ مَقَلَّتِي يَا رَسُولَ عَارِيَةٍ فَانظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَيَّ بِصَرِي

ومن شهود هذه الوفادات ، والرسل المختلفة بينهما غايات راحات ، شيخٌ جليلٌ هو الشيخ محمد بن حفص بن عمر التميمي (أبو ابن عائشة) وهو وقتئذٍ يتولى القضاء بالبصرة ، وكان منصرفاً عن المسجد فرأى - فيما بين دار أبان ودار حُمران - فتىً لَبِيقًا ، دَمَثًا ، عَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضٌ حَسَانٌ ، وَعَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ مُضْرَبَةٌ ، وَاقْتَفَا مَعَ امْرَأَةٍ يَكَلِمُهَا . فدنا الشيخ منه وقال له : « يا هذا إن كانت هذه المرأة منك بسبب ، فقد عرضتها للثمة ووقفها موقف سوء وإن كانت غريبة عنك فحقيقٌ عليك اتقاه الله وألا ترضى لغيرك إلا بما رضىته لنفسك » . فالتفت الفتى إلى الشيخ الذي يخاطبه ، وقال على الفور في أدب وظرف : « القول ما قلت ، وأنا قابلٌ نصيحتك وغيرُ عائدٍ إن شاء الله تعالى » . فوالى القاضى وجعل في طريقه يفكر في أمر الفتى فلا يدرى أىَّ شمائله يستحسن ، أسرع جوابه ، أم حسن مراجعته له بقلة الخلاف ، أم ظرف لسانه . ثم دخل القاضى فى المسجد الجامع وجلس ساعةً للقضاء والنظر فى المظالم ، فلم يشعر إلا بركة فى الرقاع بين يديه وكان الذى جاء بها ابن عائشة ولده . فتناولها ، وإذا فيها :

« يقول لك أبو نواس :

إِنَّ التّي أَبصرتَهَا سَحَرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ
 لَيْسَتْ هِيَ التّصَدُّ الَّذِي يُؤْمِي إِلَيْهِ وَلَا السَّبِيلُ
 أَدَّتْ إِلَى رِسَالَةٍ كَادَتْ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ
 مِنْ سَاحِرِ الْعَيْنِينَ يَجْ ذَبْ خَصْرَهُ رَدْفٌ ثَقِيلُ
 مُتَقَلِّدٌ قَوْسَ الصَّبَا يَرْمِي وَلَا يَسِيلُ لَهُ رَسِيلُ
 فَلَوَ أَنَّ أذْنَكَ بَيْنَنَا حَتَّى تَسْمَعَ مَا نَقُولُ
 لَرَأَيْتَ مَا اسْتَقْبَحْتَهُ مِنْ أَمْرِنَا وَهُوَ الْجَمِيلُ
 وَعَلِمْتَ أَنِّي فِي نَعِيمٍ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ

فضحك الشيخ حين قرأها ، وقال لابنه : « قل له إني لا أعرّض

للشعراء » .

أما ذلك « النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول » فذلك أن جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها . ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زُوراته لها نهائياً كما كانت قصارا . وظهرت فيها إحدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة - لا مجرد أثنى . فاذا بالمجنون الفاسق قد صار عاشقاً على طراز المتيمين العذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم في الحب من وطئ إلا الحديث والنظر . على أن جنان لم تلبث في تخرجها أن وجهت إليه « قد شہرتني فأقطع زيارتك عنى أياماً لينقطع بعض القالة » . ففعل محزوناً ، وكتب إليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا وبيننا - حين نلتقى - حسنٌ
فليس يُقذى عيناً معاينةً له ، وما إن تمجَّه أذن
ويحَ تقيفٍ ماذا يَصْرُهمُ إن كان لي في ديارهم سكن
أرَبٌ ما بيننا الحديثُ ، فإن زدنا فزيدوا ، وما لذا ثمن

وقعت بالرسائل يدسها إليها ويحتمل على إبلاغها لها ، فكان يباليغ في
تدبيجها وتهذيبها ويكثر من التائق في عبارتها ، ليختلب الحبيبة ويسترضيها .
وكان من ذلك ما لا بد أن يكون من كثرة الخو والإثبات فيها . فقام بنفسها
- في سوء ظنها به - أن كثرة التغيير في رسائله حاصل من أنه ليس يصدر
عن صدق شعورٍ وطبعٍ ، ولكنه التلفيق وتزوير القول . وفي ذلك يقول :

غضبتُ الخو في الكتاب كثيرٍ قالت : « أراد خيانتى وغرورى
كتب الكتاب على خلاف ضميره فالخو فيه لكثرة التغيير »

وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وترامى
الخبر إلى الشاعر من بعض رفاقه محمد بن زياد المعروف باليؤيو ، فقال شاعرنا
للذى أخبره : « أما والله لا يفوتنى المسير معها والحج عامي إن أقامت على
عزيمتها ، وما على من هذا » . فظنّ مازحاً في أول أمره . ولكنه سبقها
إلى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحج عمره ،
وما أحدث عزمه إلا خروجهما .

ولقد شوهد في الحج وقد أحرم . فلما جنَّ الليل على هذه الأرض المباركة

وقد ازدحمت بالمسلمين من أقطار الأرض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه
الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الإيمان ، واهتزت نفسه في جنح هذا
الليل لنجوى الغيب ، فسمع يلقى بشعر وهو يحدو به ويطرب :

إلهنا : ما أعدلكُ ملهك كل من مملكُ

لبيك ، قد لبيتُ لك وكلُّ من أهل لك

لبيك إن الحمد لك والملك ، لاشريك لك

والليل لما أن حلك والسباحات في الفلك

على مجارى المنسلك ما خاب عبد أملك

أنت له حيث سلك لولاك يا رب هلك

يا مخطئاً ما أعفك عجل ، وبادر أجلك

واختم بخمير عملك لبك إن العز لك

والملك لاشريك لك والحمد والنعمة لك

وكانت سبعة من سبحات الروح التي لا يخلو أن تطرق النفس البشرية
مهما يكن من ضلالها أو إنكارها في لحظة من لحظات الاتصال بالقوى
الغيبية العلية .

فلما كان الطواف ، تقيه بعض أصحابه ، ثم فاتهم وتقدمهم ، فاذا بهم
يروونه خلف امرأة ، ولا يكادون يروونه إلا خلفها . فلم يدروا من هي . فلما

صارا إلى الحجر الأسود فإذا بالمرأة تلثم الحجر، وإذا هو قد لثم معها حتى ألصق
خده بخدها في زحمة الخلق . وتفطنوا لها فإذا هي جنان . فلما انصرفا ، لقيه
ممن راقبوه محمد بن عمرو الجماز (ابن أخت سلم الخاسر الشاعر) فقال له :
« ويحك ! في هذا الموضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يرذك
حياة من الناس ! قدر أيتك وما صنعت اليوم » . فقال : « يا أحمق ! وحسبت
قطع المهامه والسباب والرمال إلا للذي حججت له وإليه قصدت ! » . ثم
أنشأ يقول :

وعاشقين التفَّ خدَّاهما	عند الثمام الحجر الأسود
فاشتغيا من غير أن يأنما	كأنما كانا على موعد
لولا دفاعُ الناس إياها	لما استفاقا آخرَ المسند
ظَلْنَا كلانا سائرَ وجهه	- مما يلي جانبه - باليد
نَفَعَلُ في المسجد ما لم يكن	يفعله الأبرارُ في المسجد

وعاد أبو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم تر أنني أفنيتُ عمري	بمطلبها ، ومطلبها عسيرُ
فلما لم أجدُ سبباً إليها	يقرّبني ، وأعيتني الأمور
حججتُ ، وقلتُ قد حجبتُ جنانُ	فيجمعني وإياها المسير

وتابع أبو نواس بعد عودته إيفاد الرسل إلى جنان ، حتى أعيته الحيلة

فيه ، فاستنظرته إلى أن يخرج زياد^(١) أخو مولاتها في سفرٍ من أسفاره ،
ولم يكن ذلك إلا تعلقاً منها . فقد خرج زياد ، وانقضت الأيام في إثر الأيام
ولم تُوفِّ له ولا خرجت لملاقاته . فكان يطوف بقصر الثقفين كلَّ يومٍ
على حد قوله :

أطوف بقصركم في كل يومٍ كأن لقصركم خُلق الطوافُ
وهو متطلعٌ متنظرٌ على غير جدوى :

جَمُنْ عيني قد كاد يسقط من طول ما اختليجُ
وفؤادى من حرِّ حبه لك قد كاد أو نضج
خبريني - فدتك نفسي بي وأهلي - متى الفرج ؟
كان ميعادنا خروج زياد ، وقد خرج
أنت من قتل عائذ بك في أضيق الحرج

وكانت جنان لا يزال يساورها ويتمثل لوهما ما هو متواترٌ شائعٌ من
عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جدِّ الحياة واسترساله مع المجانة والهزل .
فكرهت بعد هذا كله أن تكون مثله . ورجعت إلى عاداتها من مجافاته وسوء
ملافة رسله ، وعادت تهجمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر التأذى من تهتكه
فيها وغزله . فقال وهو لا يكاد يكتُم غيظه :

وَأَبَى مَنْ إِذَا ذُكِرْتُ لَهُ وَطُولُ وَجْدِي بِهِ تَنْقَصِي

لو سألوه عن وجهِ حجّته
نعم ، إلى الحشر والتناد ، نعم
لا تُثني - ويك - عن محبته
أصبح جهراً لا أستسرُّ به
« يا معشر الناس فاسمعوه وعوا »
في سبِّ لي ، لقال : « يعشقتي »
أعشقه أو ألف في كفى
ما دام روحى مُصاحباً بُدنى
عنفتي فيه من يُعنفتي :
إن جنانا صديقةُ الحسنِ »
ولقد غضبت جنان لذلك غضباً شديداً ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأصرَّ

الرجل على حبه لها وتشبيبه بها :

أنا أهواك ، فموتى كدا
بأبي - لا نعمك الله - اصبري
إنتى لست بسال أبدا
إلزمى الهجران وارضى لى الردى
ورآها المسكين ذات ليلة فى منامه ، وكأنها قد صالحته ، فاهتاج شوقاً
إليها ، وكتب لها من فوره :

إذا التقى فى المنام طيفانا
يا قرة العينين ما بالننا
لوشت - إذا حسنت لى فى الكرى -
يا عاشقين اصطالحا فى الكرى
كذلك الأحلام غرارة
وربما تصدق أحياناً
عاد لنا الوصل كما كانا
نشقى ويلتذ خيالانا
أتمت إحسانك يقظانا
وأصبجا غضبى وغضبانا
ويعتقد أحياناً

وأخيراً أجمعت « عمارة » عزمها ، وبيّنت النية وزوجها على أن يُغيبنا
جنان عن الشاعر . وكان لمولى جنان أخ يُقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد

بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ،
ولكنه عبثٌ خرج منه . وكانت لأبي عثمان ضيعة بحكمَان في ظاهر البصرة
فانتقلوا إليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر ولاء قلبه ، وانطوى منه على
شجو ناصب ، فكان لا يُرى إلا هاتماً على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب
البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من أقبل من تلك الناحية ، ويحتال
في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي مية ^(١) محمد بن
مخالد ، وغنى عن البيان أن قصده كله التقصّي عن جنان ، وما كان ذلك
ليخفي على واحد ممن كان يتوجه إليهم بالسؤال :

أَسْأَلُ الْقَادِمِينَ مِنْ حَكْمَانَ « كَيْفَ خَلَقْتُمَا أَبَا عَثْمَانَ ،
وَأَبَا مِيَةَ ^(١) الْمَهْدَبَ وَالْمَأْمُولَ وَالْمُرْتَجِيَّ لِرَيْبِ الزَّمَانِ ؟ »
فَيَقُولَانِ لِي : « جَنَّانٌ كَمَا سَرَّكَ مِنْ حَالِهَا ، فَسَلْ عَنْ جَنَّانٍ »
مَا هُمْ - لَا يُبَارِكُ اللَّهُ فِيهِمْ - كَيْفَ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ كِتْمَانِي ؟

وما من ريب في أن أبا نواس كان حقيقاً بأن تنصلح حاله ويستقيم
طبعه وتحمد سيرته ويصح دينه ، لو أن علاقته بجنان في عقلها وكال أدبها

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لأبي عثمان)
ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها أن أبامية هو نفسه
زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧
من أن أبامية (أمية) اسم خالد ، وللشاعر بن منذر فيه أبيات مذكورة تشير إلى أنه
كان يحطّب نساء تقيف فيرد لفقره - وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور)
في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان .

قد دامت له ، وأدّت إلى نتيجتها الطبيعية من اقترانه بالمرأة التي يحبها ،
والاستقرار بالحياة الجنسية في كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له في عينها . ولكنها
هي وجميع من حولها - لسوء حظها وتعسه - لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدّقوا
أن جنان منه في موضع عشق ولا عشرة ، أو أنه يخلص يوماً في حب المرأة .
وحسبنا في الدلالة على الأثر الطيب الذي كان لهذه العلاقة في صلاح
سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانٍ نخلعتُ عن رأى عنانى ،
وركبتُ ما أهوى وكم أجفو مقالةً من نهانى ،
وخرجتُ أخبط سادراً لم أُغنَ عن حبِّ الغوانى .
وقد تبين أيضاً أثر ذلك واضحا في شعره ، حتى أخذ عليه بعضهم سكوته
عن تصوير محاسن الاجسام ونعت الخمر إلى وصف الجوى وشكوى الهجر :
وقائلةً لى « كلُّ شعرك في الهجر ! » فقلت « برغمى حيث سار به شعرى
تشاغل بالهجران ممن أحبه ، وقد كان يحلو بالحاسن والخمر »
فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع
منه رجاؤه ، لم يطق المقام في البصرة ، فأزمع الرحيل ، وكان برغمه التوديع :
كفى حزنًا ألا أرى وجه حيلة أزور بها الأحباب في حكمان
وأقسم لولا أن تنال معاشرُ جنانا بما لأشتهى لجنان ،

لأصبحتُ منها دانيَ الدارِ لاصتاً ولكنَّ ما أخشى - فُدَيْتِ - عداني
أراني انقضت أيامُ وصليَ منكمو وآذن منكم بالوداعِ زمانِي
فواحرزنا يومي إلىَّ به الوري ويصبحُ ماثوراً بكل مكان
وتزح أبو نواس يطلب ودَّ الملوك في بغداد . ويخطئُ من يحسب هذه
الدنيا الزاخرة الشائقة التي هو مقبلٌ عليها بالتي تذهله عن جنان . وحسبنا في
ذلك اعتراف الشاعر نفسه « وخرجتُ إلى بغداد وفي نفسي بقايا من جهنم ،
ما فارتنتي ولا تفارقتني إلا مع خروج روعي » .

في طريق بغداد

خرج أبو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد اسودت في عينه
مجالها ، وضافت به مغائنها . فغادرها مدعياً الكره لها والتنكر لأهلها . ولا
شك في أنه كان يجد للذكرى وجداً عظيماً ويمحس لها مضاً أليماً ، حتى بلغ في
طلبه النسيان أنه عمد الى المراسلة بينه وبين خاصة الإخوان في البصرة
فقطعها :

قولا « لعباس » لكي يدرى	اغلام عكّ قُدوة المِصرِ
« فيم الكتابُ إلى تخبرني	بسلامة - في البطنِ والظهرِ
فأقطع بسيف صارمٍ ذكّر	أسبابَ كتبِ بيننا تجري
فإن امتنعت فلا مواترة	حسبي كتابٌ منك في الدهر
واجمع حوائجك التي حضرت	عند الكتابِ إلى - في سطر
ما ذاك إلا أنتي رجل	لا أستخفُ صداقة البصرى

على أنه غير قمين بالقارى أن ينخدع بهذا القول في حالة السخط والياس
فقد عاد الشاعر يحن الى موطنه في البصرة . ويشتاق منازلها ومعاهد صباحها فيها

ولكنه كان يتكلف الصبر ، ويلزم نفسه السلوان ، متلهياً بالشرب والتقص
في الحانات والمتنزعات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلى ، وأقوت الكتبُ مَنِّي فالمرديدان ، فاللببُ
فالمسجدُ الجامعُ المروءةِ والد ين عفا ، فالصحان فالرحبُ
منازلُ قد عمرتها بها يفعاً حتى بدا في عذارى الشهبُ
في فتية كالسيوف هزهم شرحُ شبابٍ وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فاقسموا أيدي سبا في البلاد فانشعبوا
لن يخلف الدهر مثلهم أبداً على - هيهات - شأنهم عجب
لما تيقنت أن روحهم ليس لها ما حيت منقلب
أبليت صبراً لم يبيله أحدٌ واقسمتني مآربُ شعبُ
كذلك أني إذا رزئتُ أخا فليس بيني وبينه نسبُ
قطرُ بلٍ مربعي ، ولي بقرياً كرخ مصيفٌ ، وأبى العنب
ترضعني درها ، وتلحفني بظلمها والهجيرُ يلهبُ
إذا ثنته العصور جلاني فينان مافي أديمه جوبُ
تبيت في ماتم حمائم كما ترسني الفواقد السلبُ
يهبُ شوقٍ وشوقهن معاً كأنما يستخفنا طربُ
فاذا أضفنا إلى هذه أبياتاً له أخرى يقول فيها :

أيا من كنت بالبعرة أصفي لهم الودا

ومن كانوا موالىً ومن كنتُ لهم عبداً
ومن قد كنتُ أرغاه وإن ملَّ وإن صدأ
شربنا ماءً بغدادٍ فأنساناكم جيداً

لم يبق موضعٌ للشك في أن شاعرنا نزع من البصرة لأنه خاب في حبه
وفجع في قلبه . ولقد بلغ به الكمد والكرب أن بدت في عذاره ومفرقه
رواعى الشيب ، ولما يزل في شرح الشباب ورباعانه .

وأخذ الشاعر في طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من
البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن يقصد منها الكوفة الجليلة المعروفة
بالعلم والعلماء ، وإنما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك
التي عرف سوادها وجاسَ أرباضها وشرب في دساكرها وحاناتها ، واطلع طلع
ملاهيها ، وخبر مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . إنه اليوم
لأشد حاجة الى السكر ، وأفسح عذراً في التلهي والقصف ، تفرجاً عن
همه وتخفيفاً من يأسه القاتل وهرباً من نفسه . ولقد لقي صاحبنا في الكوفة
من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صحبتهم وأنس بمنادمتهم ، حتى ختم
قصيدته الرائية في ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفانُ » مذهبها وعَدِمْتُ عن ظرفائها صبرى
وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من أنزه البقاع وأطيبها ، كثيرة
المياه والرياض ، وكانت تقوم في معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان في
انقطاعهم بهذه المواضع يعملون إلى جانب العبادات لتزويد المدير بحاجاته وتوفير

موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، وإلى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بثمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران ، وعلى الخصوص بمعققاتها من الخمر ، وهى من قديم « المشهورة فى الآفاق ، المعروفة معارسها بطيب الأعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب من المسامين للخمور النصرانية لارتياض النصارى باعتصارها وحذقهم له ، فضلاً على ما اقتصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الإقبال أنه تأدى بالرهبان إلى اتخاذ الحانات إلى جانب الأديار لبيع خمورها لمريديها . فكان يقصد إليها فيمن يقصد أصحاب اللهب والمجان من المسامين ليشربوا الخمر العتيقة ، فى الآنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وأنعام التراتيل والقراءات فى المزامير والأنجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية ولقد عاج أبو نواس فى طريقه إلى بغداد على حانات هذه الأديار التى كانت كثيرة حول الكوفة وفى ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الإدمان عليها والعيب فيها :

وقهوة عتقت فى دير شماش تفتت فى كأسها عن ضوء مِقْبَاس
مزاخها دمع حاسيها ، فأى فتى لم يَبْكُ إذ ذاقها من حرقة الكاس
سليم ، ولكنها حرب لذائقها يا حبيذا بأسها ما كان من باس
وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولا يدع الساقى يفترعنه ،

ولا يبرح يفاشده أن يحث المدامة إليه ويديرها مرات بعد مرات عليه . وإنه
ليبتادر للخاطر أنه كان يشرب لا للشرب ولذته ، وإنما تعجلاً لسكرته
والتماساً لذهول العقل وغيبية الفكر :

رُذًا على الكأس إنكما لا تدريان الكأس ما تجدى
لو نلتما ما نلت ما مرجت إلا بدمعكما من الوجد
وظاهر من هذا أنه قد عكف على الكأس حين عكف ليغرق الهم
في كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسه وينسلخ عن ذكرى أمسه . فهل تراه
أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما في نفسه ؟ هيات ، بل كانت هذه المجالس
التي جلسها للشرب في الأديار على رنين النواقيس وترانيم الرهبان وأنواع
التطريب والألحان أدمى للذكر وأورى عنده لنار الوجد ، حتى تغلب الحال
عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجاً عن القصد متجاوزاً للحد ، يحسبه
منادموه عريضة منه لخفاء سره وجهلهم لأمره :

إذا شاك ناقوس وشجوا الناي والعود
وغوديت بريق الخمر محته العناقيد
تطربت إلى الإلف فقلوا أنت عرييد
وهل عريد مكروب قريح القلب معمود!

ولقد كان من الدواعي المحببة للشرب والمغرية به موقع الأديار بين الجنان
الموتقة والغدران المترفة ، أو على الروابي العالية المطلّة على الأودية الناضرة
والمياه المنحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك في أن رقّة الهواء ، ورواء المنظر

وحسن المستشف، وهذه الألوان البهيجة المشبوبة، والعطور المتزجة المشبوبة، من شأنها أن تشد الحواس وتنبه مراکز العصب، فيتحرك الحب في قرارة كل قلب. وإذا لم يكن لشاعرنا المهجور أمل في الحب، فقد انصرف إلى الشرب في هرة طربه واهتياج مشاعره. وهذه أبيات له في دير مريونان - ويقال له أيضاً عمر يونان - في الأنبار على ضفة الفرات، وهو دير كبير عليه سور محكم، ورياضه غناء فيحاء:

أَذْنُكَ النَّاقُوسُ بِالْفَجْرِ	وَعَرْدُ الرَّاهِبِ فِي الْعُمْرِ ^(١)
وَحَنٌّ مَخْمُورٌ إِلَى الْخَمْرِ	وَجَاءَكَ الْغَيْثُ عَلَى قَدَرٍ
وَاطْرَدَتْ عَيْنَاكَ فِي رَوْضَةٍ	تَضْحَكُ عَنْ خُضْرٍ وَعَنْ صُفْرٍ
فَعَاطِ نَدْمَانِكَ مِنْ خَمْرَةٍ	مَزَاجُهَا مِنْ مُعْرِقِ الْقَطْرِ
عَلَى خَزَامَاهَا وَحَوْذَانِهَا	وَمَشْكَلٍ مِنْ حَالِ الزَّهْرِ
فِي مَسْرَحٍ تَرْتَعُ أَكْنَافَهُ	شَوَادِنٌ مِنْ بَقْرِ زُهْرٍ
يَاخُبِذَا الصَّبْحَةَ فِي الْعُمْرِ	وَحَيْذَا نَيْسَانُ مِنْ شَهْرِ
يَاعَاقِدِ الزَّنَارَ فِي الْخَصْرِ	بِحَرْمَةِ الْحَنَانَةِ وَالْقَهْرِ ^(٢)
لَا تَسْقِنِي - إِنْ كُنْتُ بِي عَالِمًا -	إِلَّا الَّتِي أَضْمَرْتُ فِي صَدْرِي
هَاتِ الَّتِي تَعْرِفُ وَجَدِي بِهَا	وَإِنْ كُنَّ بِمَا شِئْتَ عَنِ الْخَمْرِ

ومن الديرة التي عاج بها أبو نواس بظاهر الكوفة على بعد يومين منها دير حنة، وهو دير قديم في بقعة كثيرة الرياض والبساتين، تحاذيه منارة

عالية كالمرب تسمى القائم ، وبه بيوت صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلالتي لهم وتسمى هذه البيوت بالأكيراخ . ولعله من أدل الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكل همة أن يسكر من معتقات دنانه، وينظر الى طبائنه من الإنس وغزلانه، على حد قوله :

يادير حنة من ذات الأكيراخ من يصح عنك فإني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وأرواح
فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا
المشهد المائل لعيانه للزهد في متاع الحياة ، والإعراض عن الدنيا والانتطاع لله .
فقد جعل - وبه شعور مخامر من العجب الذي لا ينقضى والارتياح الذي
لا يدرى كنهه - يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد انحلم القنوت
والتقشف ، وشفهم التهجد والتعبد ، وأذابهم طول التفكير والخوف
من نار السعير ، فلا يرى الناظر إليهم إلا أشباحا ، محفوة مفارقهم ، محوفة
رعوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوح خشنة بالية ، وقد عزفوا في
مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرّموا على أنفسهم من أسباب الترف أهون
وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشربون من الغدران بغير آنية اغترافا بأيديهم .
فاسمع إليه يقول فيهم :

دع التشاغل بالذات - يا صاح - من العكوف على الريحان والراح
واعدل إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة ، نحف الجسم ، أطلاق

لم يبق منهم لرائهم إذا حصلوا - حذار ما خوّفوه - غير أشباح
تلقى بهم كلّ محفوّ مفارقه من الدهان ، عليه سحق أمساح
لا يذفون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح
ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه، ومن تحقق معناها في حسّه، أن عاد
إليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دع البساتين من آس وتفاح واعدلْ - هُدَيْتَ - إلى ذات الأكيراح
إعدلْ إلى نفرٍ دقتْ شخصوهم من العبادة إلا نضو أشباح
يكررون نواقيساً مرجعة على الزبور بامساء وإصباح
تُبعدُ بسمعك عن صوتٍ تكررّه فلست تسمع فيه صوتَ فلاح
إلا الدراسة للإنجيل من كتبٍ ذكر المسيح بإبلاج وإفصاح

على أن الشاعر لا يلبث حتى يعاوده ما تعودّه أمثاله من السكر والمجون،
فتراه بعد أن عدل - في هاتين المقطوعتين - عن الريحان والراح والآس
والتفاح، إلى ذكر العبادة والصلاح، ووصف العابدين أنضاء النسك كالأشباح،
ينتقل إلى ما كان عليه من التغنى بالحمرة الممتعة التي يتحفون بها الضيوف في
القعباب الكبار ، وإلى التغزل بالراهب الفقي الذي دار بها عليهم وقد صار
بعد السكر ينعت نحوّه بالهيف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية
ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نعمة شعره إلى وتيرتها ، وتعود حياته
للماجنة سيرتها ، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيبه وعتيقُ الراح تُحَقِّقُهُمْ بكل نوع من الطاسات رَحْرَاح

يستقيكها مُدْمَجُ الحَصْرَيْنِ ذَوْهَيْفٍ أَخُو مَدَارِعِ صُوفٍ فَوْقَ أَمْسَاحٍ
 ولقد كانت الأديار كثيرةً في العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان
 بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تُحَصَّنُ الأَسْوَارُ
 الشاهقة والأبواب المفرطة في السكبر من حديد مُصَمَّتٍ أحياناً ، وكان منها
 ما تعلوه القبابُ المنيفةُ تُرَكَّى من بعيد . وكان لبعضها زينةٌ في داخلها نهاية
 في البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوّقة الجدران بأشكال النقوش والفصوص
 المذهبة ، مفروشة أرضها بصنوف الرخام المجرّع والمرمر المسنون الممرد لاتستقر
 عليه القدم ، وفي سقفها الذهب والفسافس واللازورد ، وقد علقت في هياكلها
 القناديل من فضة ، واتخذت لها الصليبان من ذهب . وفي أركانها وآزاج
 طيقانها الدثمي محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفي سقفها وحيطانها صور
 مرسومة ملونة بأزهي الأصبغة والألوان . وفي الصدر صورةُ المسيح وعلى
 رأسه إكليلُ الشوك ، أو صورة مريم في غاية من إتقان الصنعة « كَمَا مِلَّتْ
 مِنْ نَاحِيَةِ كَانَتْ عَيْنُكَ إِلَيْهَا » .

ولقد كانت الأكوابُ التي يُسقى بها ضيوفُ الديرة من ذهب أحياناً ،
 وكان منها الأملس الغفل ، ومنها المنزّل المحفور بأنواع الرسوم الدينية . ولقد
 شرب أبو نواس خمرة ذهبية اللون في أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :

أقول لما تخا كيا شهباً أيهما - للتشابه - الذهبُ
 هما سواء ، وفرق بينهما أنهما جامدٌ ومنسكب

مُلسٌ ، وأمثالها. محفّرة صوّر فيها القسوسُ والصُّب

يتلون إيجيالهم ، وفوقهم سما خمر ، نجومها الحَبَبُ

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء الجان أمثال أبي نواس لحانات هذه الأديار أن كثرت في أشعارهم ورُودُ أسماءها والتغنى بخمورها ووصف بسائتيها . وقد ألموا في تلك الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وإن كانت لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذي يزعمونه عن ليلة المشوش وما يجري فيها من إباحات واستهتار بالمحرم مما لا يقرّه دين ولا يصحّ في عقل . وإلى هذا الوهم يشير أبو نواس في أبيات له في تفضيل بهروز الفارسي على الغلمان النصارى :

نقى في الولادة عن مشوشٍ يرخصه النصارى للقسوسِ

وحسبنا لبيان إلمام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر النصرانية في أعياد

القوم ومتعبداتهم هذه الأوصافُ لأبي نواس :

كأتما الكأسُ إذا صُفِّقَتْ قنديلُ قسٍ وَسَطَ محرابه

وله في فوران الخمر في إبان تعتيقها في الدنان :

أقامت حقة في قعرِ دنٍ تفور وما يحسن لها لهيب

كان قراتها في الدن تحكى قِراءةَ القسِ قابله الصليبُ

وقوله متغزلا :

عيناي تشهد أني عاشقٌ لكم يا دُمَيَّةَ صوِّروها في المحاريبِ

وأخيراً هذه الأبيات في المجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن

مارى سرجس :

بعمودية الدين العتيق بمطرُ بليطها ، بالجائليق^(١)
بشمعون ، بيوحنا ، بمتى ، بمارى سرجس القس الشفيق
بماتِ مريم ، ويومِ فصح ، وبالقربان ، بالخر العتيق
بميلاد المسيح ، بيومِ ذبح ، وباعوث^(٢) لتأدية الحقوق
وأيام السعانيين^(٣) المبدى وشمعة النصارى في الطريق
لهيكل أسقف ، وبما يليه ، ونشر البند والعلم الخفوق
وبالصلبان ترفعها رماحُ تلالا ، حين تومض بالبروق
وبالناقوس في السبع اللواتي تقام بها الصلاة لدى الشروق
بداود وما يتلون منه بترجيع يُردد في الخلق
بقلايات دومة ، بالمقاسى ومذبح ديرها الحسن الأنيق
ورهبان الصوامع في ذراها مقامهم على جهد وضيق
بكنس الروم والشامات طرا بقسطنطينة البلد السحيق
لقد أصبحت زينة كل عيد ودين ، مع جفائك والعفوق
ومن مقطوعة أخرى :

(١) الجائليق مقدم الأساقفة . (٢) الباعوث : عيد للنصارى كالأستسقاء للمسلمين

(٣) السعانيين أو الشعانيين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع .

روح القدس والميلا د والهيكل والذبح
وصورة مريم العليا وبالساق^(١) في الصبح

ومثلها :

بسجود القسيس يوم السجود والصليب المعظم المعبود
وبناقوس بيعة اللحم حقاً وبأقفاها وبالإقليد
وبما في بيوتها من رخام وبما تحت سقفا من عمود
وغير ذلك كثير من الأقسام التي تشتمل في مضامينها على جملة أوصاف
اشعائر النصرى وسُنَنهم ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم وتمعُّباتهم .
وفيا ورد منها الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسامين بهم اتصال
معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلاء والمتاجنين لأيام أعيادهم للنظر إلى محاسن
فتياتهم وفتياتهم في الحلى والحلل في غدوهم إلى البيع والكنائس ،
والتعرض لهم أحيانا بالغرل والعبث .

على أنه يحسن أن ننبه هنا إلى أن ما يرويه أبو نواس وأمثاله من
خلاعاتهم ورقاعاتهم في الأديار في عصابة من الفتاك الخلاء ورفقة من الشطار
والفتيان المفاصيد ، إنما ينصرف إلى الخانات والبساتين التي حولها ، كما هو
واضح جلياً من شعره :

بدير نهر اذ ان لي مجلسٌ وملعبٌ وسط بساتينه

(١) السلاق : عبد للنصارى وفيه تسلق المسيح مصعداً الى السماء

رجت إليه ، ومعى فتية
بكل طلاب الهوى فاتك
حتى توافينا إلى مجلس
والترجس الغض لدى ورده
وجيء بالذن على مرفع
واقصد الأكل من دننا
وطاف بالكأس لنا شادن
يكاد من إشراق خديه أن
فلم نزل نسقى ونلهو به
حتى غدا السكران من سكره
تزوره يوم سعادته
قد آثر الدنيا على دينه
تضحك ألوان رياحينه
والورد قد حُفَّ بنسرينه
وخاتم العليج على طينه
فانصاع في حمرة تكوينه
يُدميه مس الكف من لينه
تُختطف الأبصار من دونه
ونأخذ القصف بأينيه
كالميت في بعض أحاينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا في طيزناباذ بين الكوفة والقادسية
ودياراتها ذات قباب ، وهى من أنزه المواضع ، محنوفة بالكروم والشجر ، وفيها
المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا
أيضا معدول عن الدير إلى بستان صاحب الدير (وهو العمارة أى الديرانى ، من
العمر وهو الدير) :

يا جبذا مجلس قد كان يجمعنا
وجبذا أم عمار ورويتها
تعلمنا بمدام قد تناولها
لم نخط من خدرها شبرا إلى أحد
بطيزناباذ فى بستان عمار
حمارة أصبحت أمّا لعمار
ريب الزمان وعصر بعد أعصار
ولم نزل بين جنات وأنهار

ولعل أبا نواس لم يدع في طريقه إلى بغداد ديراً أو عمراً ، ولا قلاية
أو كرحاً ، إلا ألم به ، فهو لا يفتأ يلهج بذكر ديارات الحيرة وطيزناباد والأنبار
وغيرها ، مردداً اشتياقه لها وما يعتاده من الحنين إليها ، تجديداً لمجالس شربه
في حاناتها ، وملاهيته في بساطتها :

أنا والله مشتاقٌ إلى الحيرة والخمر
وأصواتِ النواقيسِ على الزيراتِ بالفجر
ومشتاقٌ إلى الحانا ت يوم الذبح والنحر
ومُفَنِّ في طِلابِ المرِّ د والخمر معاً وفُرى
أما والله لو تسمع ما قلتُ من الشعر
لأيستَ من أفلاحي يقيناً آخرَ العمر

ولقد أفادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، إذ جلتها أجمل جلوة
في عينه ، وقربتها إلى قلبه ، وخطبتها بحسه ، فظهر أثر ذلك جلياً في شعره .
على أن هذا الحب للطبيعة لم يرتفع عنده إلى وقفة التعبد في هيكلها والحبوت
الروعتها والشعور الديني بمحضرتها والاتحاد الصوفي بروحها ، وإنما كان قصاره
أن جعله دائم الصبوة إلى طيب المجالس في رياضتها ، سريع النشوة بعطورها
وأطيابها ، متطرباً إلى خريز جداولها وأطيابها ، منجذب العين إلى أنواع
ريحانها ومشبوب ألوانها ، حتى صار لا يطلب شيئاً طلبه للشرب في أحضانها
كأنما يرتضع الحفرة من لبانها . ومعنى ذلك أنه وإن يكن عاشقاً من عشاق

الطبيعة لم يكن عشقه لها إلا من نوع العشق الحسى لا يعنى بغير المموس المحسوس -
فالطبيعة عنده - كما قدمنا - ليست معبداً ، ولكنها مرتعٌ موقنٌ للهو واللعب
لا مرتعٌ مثله ، ومجلسٌ مأنوسٌ للسكر والطرب لا يعدله مجلس . وهنا يتشاغل
هذا المحب الحبيب عن هوى «جنان» بهوى المرد والقيان . وهنا نلقى هذا
الشاعر العالم يغالب بالشراب أحزانه ويطفى به وجدَه وأشجانَه ، لو صح أن
اللذة تُغنى غناءً الحب ، وأن الخمر تُطلق النفس من عقالِهم ، وتُفرغ برد
الغراء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم المحزون :

لا تَخْشَعَنَّ لَطَارِقِ الحَدَثَانِ	وادفعْ هُمومَكَ بالشرابِ القانى
أَوْ مَا تَرَى أَيْدِي السَّحَابِ رَفَشَتْ	حُلَلِ الثرى بطرائقِ الریحانِ
مِنْ سوسنٍ غَضَّ القَطَافِ ، وَخُزْمِ	وَبنفسجٍ ، وشقائقِ النعمانِ
وَجَبَنِ وِردٍ يَسْتَبِيكُ بِحَسَنِهِ	مِثْلِ الشَّموسِ طلعنِ مِنْ أغصانِ
حُمْراً وَبِيضاً يُجْتَنِّينَ ، وَأَصْفَراً	وَمولوناً بیدائعِ الألوانِ
كعقودِ ياقوتِ نَظْمِ ولؤلؤِ ،	أوساطهنِ فرائدُ العقیانِ
وَمِنِ الزَّبَرَجَدِ حولهنِ مِثْلاً	سَمطاً ، يلوح بِجانِبِ البستانِ
فَإِذَا الهُمومِ تعاوَرَتِ فَسَلَّها	بِالراحِ والریحانِ والنِّدمانِ

دار السلام في عصرها الذهبي

تعجل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطولةٍ وختَمَ مطافه ، وأقبل لأول عهد الخليفة هارون الرشيد قادماً على دار السلام ، بغداد التي اختطها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الإسلام .

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتلات نفسه جلالاً ، وشبعت عينه فتنةً ، وهو يستشرف إليها ، ولقد بدت أسوارها المكيئة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيان ، كالقلعة الحصينة . وكان يدور حولها خندقٌ ، ومن ورائه مسنّة^(١) بالأجر^(٢) والصاروج^(٣) متقنة محكمة عالية . وكان دخول « أبي نواس » من المدخل المقابل للطريق التي أتى منها - أي من باب الكوفة . فإذا هومنه في دهليز عظيم أَرَج^(٤) معقود بالأجر^(٥) والجص ، في جوف السور الخارجي الكثيف ، وكان عليه بابٌ كبير جليل المقدار لا يفلقه ولا يفتحه إلا جماعة رجال . ثم أفضى من هذا الدهليز إلى رحبة مفروشة بالصخر طولها ستون ذراعاً ، مسورة غير مستقوفة ، وهي مادة في انحراف وازورارٍ

(١) ما بيني في وجه السيل : السد (٢) الأجر ما بيني به من الطين المطبوخ (الطوب الأحر) . الصاروج السكس (الحجر) وأخلطه (٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

إلى سور المدينة ، تشقّ براح الفصيل الدائر بين الأسوار الخارجية والأسوار الداخلية ، وفي حائطي هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان في جنبتيها بشرعان^(١) إلى الفصيل . فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى في صدرها الى الباب الثاني ، وهو باب المدينة في سورها الأعظم الذي عليه تقوم الأبراج العظام والشرفات المدوّرة . ومضى القادم المدهوش يحترق الدهليز الثاني في جوف السور الداخلي والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليان عظيم ، يدخل منها الفارس بالعلم والرامح بالطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح . وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة تنتهي الى طاقات^(٢) معقودة ، فيها كوا^(٣) رومية يدخل منها الشمس والضوء . وعلى طاق المدخل باب ساج كبير من فردين ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين عُرف للمرابطة .

وكان باب المدينة الذي دخل منه شاعرنا - كسائر أبوابها الأربعة - تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجالس يشرف منها على كل ما يجري حولها ، ويصعد إليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض ، وفي داخلها الديادة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الرياح لا يشبه نظائره على القباب الأخرى .

وانتهى أبو نواس من هذه الأسوار والدهاليز والطاقات والأبواب التي تحرسها الجند ، إلى داخل المدينة العظيمة . فإذا داخلها لا يكذب ظاهرها .

(١) ينفذان إليه (٢) جمع كوة (٣) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أي أقواس من البناء

فهي من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أبهة العمارة ، وفوق ما يقدره حسابان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هو على أشد الزحام بالناس أخلاطاً من سائر الأجناس . ولعلّ أعظم ما شاقه منها وارتاح إليه فيها ذلك الطابع الأجمعي الذي يطبعها ويغلب عليها في كل شيء .

فبانيها وقصورها ومصانعها على مثال من الهندسة فيه الفارسي والبيزنطي وقد حوّلوها بالأسوار ، وجعلوا في سطوحها القباب مرفوعة على العمُد الدقاق كأنها معلقة في الهواء . وزينوا جدرانها وسقفها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيوان من طواويس وغزلان . وكتبوا الآيات بالذهب المجسم ، وحفروا المناظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملون على دائر الأبواب والقمريات . وعمدوا في صنع أطرها إلى الآبنوس وغيره من الخشب الثمين . وتأثقوا في اتخاذ الجنات في قصورهم وتنسيق المتنزهات يجلبون إليها بدائع الأعراس وغرائب الأطيار من أطراف الأرض ، ويسوقون إليها الجداول ويننون السقايات . ويحتفرون البرك تجري فيها الزواريق لهو والغناء في الليالي القمراء وكان من هذه القصور ما يرجع عهدته إلى المنصور مثل « قصر الذهب » الذي بناه وسط بغداد المدوّرة ، وفي صدره الأيوان تنعقد فوق مجلسه الأعلى القبة الخضراء منيفة ترى من أطراف المدينة ، وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس وفي يده رمح . وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد ، ومأثرة

راسية الأساس لموطد مُلكِ بنى العباس . ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان . وقد جاءت تسميته تشبيهاً له بجنة الخلد ، لما يحويه من عجيبٍ فائقٍ وجميلٍ شائقٍ من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه . وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيدة المشهور بدار القرار . وكان القصران متقاربان على الضفة الغربية من النهر . وكان بحدائهما من الجانب الآخر قصور البرامكة لا تقل عنهما عظمةً وأبهة . ثم غير هذه وتلك قصورٌ عدةٌ على جانبي دجلة للأمرء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والأسواق والجوامع والحمامات وهي لا تحصى كثرةً .

وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » في بعض أشعاره :

كنت « بقصر الخلد » في روضة تخرقها الأنهارُ بالسفن
خَلَّ لها الوردُ لدى نرجسٍ معتنقٍ للآسِ في غصن
نيط بتفاحٍ إلى مشمسٍ بين نخيل الطنِّ والبرن
ياحبذا النوار نواره مختلف الهجة في الحسن
من أصفرٍ يرنو إلى أحمرٍ وأبيض في اللون كالتقطن
كما أشار إلى ما كان في قصر المهدي من حسان الطواويس في قصيدة
في باب الطرديات ينعت ديكاً من ديوك الهند :

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ أحسن من طاووس «قصر المهدي»
ومن إشارته لقصور الأمرء قوله في إحدى خرياته وقد دعاه الأمير

عيسى بن أبي جعفر المنصور ليقم عنده أسبوعاً في القفص في أرباض بغداد :
ياطيننا بقصور القفص مشرقةً فيها الدساكرُ والأنهارُ تطردُ
ولقد كان شيوع اللباس الفارسي في بغداد يكاد يكون عاماً بعد سنوات
من صدور أمر الخليفة المنصور لأصحابه بتغيير الزي الرسمي في سنة ١٥٣ .
فكانت طوال القلائس بدل العمام لرجال الدولة وأصحاب الديوان، والطيباس
السود للعلماء والمشايخ، والأقبية لسائر الرجال، والقراطق والمناطق للعلماء
والجوارى .

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهراً في كل ناحية من نواحي
الحياة العملية والعلمية، العامة والخاصة، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة
على أن أبانواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها، فلم
يعرض بشيء من جيد القول لوصف القصور أو غيرها من آيات الحضارة
وعظمة الملك في بغداد في عصرها الذهبي أيام الرشيد والبرامكة . وإنما الذي
شغله الشغل كله واستولى على نفسه وملاك عليه مشاعره، هو هذه الروح
الفارسية ذات النزعة الحسية، منبعثة في بغداد، تجري في حلبتها منطلقة في
أعنتها، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حبّ للنبيذ، ونزوع للهو
والسرور، وميل للطرب والغناء، واستجابة لدواعي الغزل . وهي روح
متفقة مع ديانتهم الزرادشتية القديمة التي جعلتهم يعبدون الطبيعة في مظاهرها
الحسية دون استغراق في العيبيات كغيرها من الديانات
ولقد كان لهذه الحضارة التي انغمس فيها الشاعر أعمق الأثر في نفسه،

وهي كذلك معكوسةٌ أصدق الانعكاس في شعره . ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على الأطلال التي تعفت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحى الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذكر غراب البين الذى آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلفوا من رسوم ، وتشتم ما حولها من العرّار والشيخ والقيصوم . وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المُحدّثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله في الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادى وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مستبحرة العمران مترفة النعيم . ولقد أبى شاعرنا العبقري المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة للشعبوية ، وبما كان يتذوقه ويتملاه في هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، إلا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره ترجمان عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه . وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقه في خشية المتهيبين وتستر المهريين ، بل رفع علم الثورة نهاراً ودعا دعوة المصلحين جهاراً ، فحق له أن ينزل من التاريخ الأدبي منزلة المجاهدين ، وأن يُعرف له في الأدب العربي فضلُ المجددين .

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية في حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعاريير المُحدّثين ، وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

إبخل على الدار بتسليم فما لديها رجع تكليم

والعَنُّ غرابَ البينِ بفضاً له
وعُجٌّ الى النرجس عن عَرَفَجٍ،^(١)
واغْدُ الى الحمرِ بابانها
ومثل ذلك قوله :

دَعِ الأطلالَ تَسْفِيها الجَنُوبُ^(٢)
وخلٌّ لراكِبِ الوَجْنا^(٣) أرضاً
ولا تأخذ عن الأعرابِ لهواً
ذَرِ الألبانَ يشرِبها أناسُ
بأرضِ نَبْتها عَشْرٌ وطَلْحٌ
إذا راب الحليبُ فَبُلَّ عليه
فأطيبُ منه صافيةٌ شمُولُ^(٤)
الى أن يقول :

فأين البدوُ من إيوانِ كسرى
وأيُن من الميادينِ الدروبُ
وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من إشارات عابثة فكهمة الى
بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقة، كالإشارة الى مطلع امرئ
القيس في معلقته « قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله - وهي إشارة

(١) العرفج والشيخ والقيصوم مما بنيت في سهول البادية، وهي جميعاً طيبة الرائحة

(٢) الجنوب : الريح التي تهب من الجنوب (٣) الوجناء : الناقة الشديدة

(٤) الحوب : الإثم (٥) الشمول من أسماء الحمر .

أصلح ما يقال فيها أنها أشبه شيء، بينكات الظراف المتحضرين من أبناء
البلد عندنا :

قل لمن يبكي على رسم دَرَسٍ واقفاً ، ما ضرَّ لو كان جلس ؟
كما أنه في بعضها شديد الوطأة ، عارمُ الجراءة ، مستجمعُ الحملة ، كقوله
في هذه الأبيات التي نجد روحَ الشعوية ظاهرة فيها وكرهه العرب غالباً عليها :
عاج الشقُّ على رسمٍ يسائله وعجَّتْ أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درَّ دركٌ ، قل لي : « من بنو أسد ؟
ومن تميمٌ ، ومن قيسٌ ، ولغهما ؟ » ليس الأعراب عند الله من أحد
لا جف دمعُ الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلبٌ من يصفو إلى وتد
كم بين ناعتِ حمرٍ في دسا كرها^(١) وبين باكٍ على نُوى^(٢) ومنتضد !
ومن طريق ما يأخذه أبو نواس عليهم ويذكره لهم في جملة معايبهم ،
ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغزل
بالمذكر ، وذلك في قصيدة مطولة يذم فيها الأعراب ويعرض بعشقتهم ويترى
بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفي ختامها يقول :

أما والله لا أشراً^(٣) حلفتُ به ولا بطراً
لو أن مرقشاً حتى تعلق قلبه ذكراً
كان ثيابه أطلع من أزواره قمرًا

(١) الساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الصراب والملاهي (٢) النوى : الحفير حول
الخميمة يمنع السبل ، والمنتضد مجتمع الرمل والحصى (٣) الأشتر : فرط المراح

ومرّ يريد ديوان الـ خراج مضمخاً عطرا
 بوجه سايرى^(١) لو تصوّب ماؤه قطرا
 وعين خالط التفتيرُ في أجفانها حورا
 وقد خَطَّتْ حواضنه له من عنبر طُرّاً
 يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا
 لأيقن أن حب المرّ د يُلفى سهله وعرا
 ولا سياً وبعضهم إذا حينته انتهرا

ومهما قيل من أن صاحبنا إنما كان في وصف اللذة والخمر تجديده جميعه ، فإن صدقه في الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحي عصره لاشك شفيعه . ولقد كان الذي اجتذب أبا نواس إلى بغداد وأخطرها بذهنه ، هو بعينه الذي اجتذب سائر أهل الفن والأدب إليها منذ ابتداء عصر المهدي . فقد كانت أيام أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور أيام تأسيس الملك وإرساء تقواعده ، بالقضاء على الأمويين الأعداء ، والضرب على أيدي الطامعين من الأولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينه طلبوا الراحة وانبسطت نفوسهم للهو . واللهو في ذلك الحين حاضر قريب ، شديد السحر والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم . فإذا الخليفة الذي عهدناه في شخص السفاح والمنصور متشدداً مقتصداً مؤثراً للجدد منصرفاً إلى مجالس العلم ، قد بدأ في شخص المهدي يتفرج ويستمتع بشيء من اللهو ، وينفق

(١) الثوب السائري : هو الرقيق الناعم

المال على الملهين والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعاً ، وكانوا في أول أمره يغنونه
من وراء ستارة ، فلم يدم احتجابه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج
لهم ، ومن قوله في ذلك « إنما اللذة في مشاهدة السرور والدينور ممن سررتي ، فأما
من وراءه فما خيرها ولذتها ؟ » . وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث
يراهم ، وهو لا يشرب لا تخرجاً بل لأنه لا يشتهيهِ . وأما هواه فكان
بالنساء ، وكان أحبَّ شيء إليه الخوض مع خاصة ندمائه في الحديث عنهن
وذكر الخلو بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى . وكان بطبيعة
حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالي بهن ،
وله في الجوارى والقيان أخبارٌ وأشعار .

وسواء أضحَ نظم المهدي لهذه الأشعار أو لبعضها أم لم تصحَّ له كلها ، فانه
كان يهتزُّ للشعر ويجزل العطايا للشعراء . فكثرت منذ عهده وفودهم على بغداد
من كل صوب ، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها .
واجتمع ببابه نفرٌ غير قليل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبدالله بن الخياط
وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبي حفصة وسلم الخامسر .
ويكنى في الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لأهله في ذلك العهد
من آفاق ، وما درَّ عليهم من الأرزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء
ورجال الأدب قبله . فقد روى لنا الراون أن قد اجتمع مطيع بن إلياس وحماد
عجرد ويحيى بن زياد يوماً في أيام المنصور العباسي ، فتذاكروا أيام بني أمية
وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ،

وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثروا ، وقال في ذلك مطيع بن إلياس :

حبذا عيشنا الذي زال عنا . حبذا ذاك ، ثم لا حبذا ذا
زاد هذا الزمانُ عسراً وشرّاً عندنا إذ أحلنا بغدادا
بلدة تمطر الترابَ على النا س كما تُمطر السماء الرذاذا
خربت عاجلاً ، وأخرب ذوالعرش بأعمال أهلها كلواذا

ولقد انقطع أبو دلامة الشاعر الأسود الكوفي للخليفين أبي العباس السفاح والمنصور ، وكانا يقدمانه ويستطيبان مجالسته ونوادره ، فلم يبلغا في عظامهما ما فيه غناءً ومقنع ، حتى قال أبو دلامة حين أحدث المنصور لبس القلانس الطوال كلمته الشاكية المتهمكة :

وكنا نرجى من إمامٍ زيادةً فجاد بطولٍ زاده في القلانس !
ولما أن أفذ الخليفة عزمه في قائد الثورة العباسية الأكبر أبي مسلم الخراساني فقتله ، أنشد الشاعر الخليفة في محفل من الناس قصيدة عصماء ، فقال الخليفة مظهرًا في هذه المناسبة غاية التطول والانعام ، متمعدًا إشعار القوم بما للخلافة من عظمة وسعة ومقدرة : « احتمكم » . فقال الشاعر : « عشرة آلاف درهم » ، فأمر له بها . فلما انصرف الناس وخلا به قال : « إيه ، أمّا والله لو تعديتها لقتلتك » .

ولقد استقل المهدي نفسه وهو ولي للعهد عطاء المنصور لإبراهيم بن هرمة حين أنشده قصيدته اللامية التي مدحه بها فكلمه في ذلك : « يا أمير المؤمنين !

قد تكلف في سفره إليك نحوها . ومهما يكن من احتجاج المنصور لذلك ، فالذي لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفي طباعه .

حتى إذا كان عهد المهدي خرجت حياة الفن من الضيق إلى السعة . إذ كان الخليفة مبسوط اليد مبذول العطاء ، لا يفتأ يتسخى على أصحابه ومناديه ووفوده من أهل الأدب والشعر ، فيأمرهم بالخلع الفاخرة والمراكب الفارحة ، وبالجوائر المضاعفة تبلغ عشرات الألوف من الدراهم تحمل إلى منازلهم معجلاً ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه . وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة الشاعر :

بسبعين ألفاً راشني من حباته وما نالها في الناس من شاعر قبلي

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعة الرزق أن كان سلم الخاسر يأتي باب الخليفة على البرذون القاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضّضين ، ولباسه الخبز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه .

ثم إن المهدي لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يُسنى الجوائز ويُجزل النفقات لأهل الفن ، حباً في الفن . ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدي يوماً فقال له : « أنشدني أحسن أبيات قيلت في السكر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف » فأنشده حماد أبياتاً للأخطل . فقال له : « أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعد به . فإذا ذكرنا أن المهدي لم يكن صاحب شراب ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بحمال الفن في ذاته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتمَّ علمه واستوفى فنه
وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر إلى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ،
ليحظى فيها بما حظى به الشعراء . وإذا كان قد فاته عطاء المهدي ، فلا يفوته
عطاء ولده الخليفة الأشهر هارون الرشيد . وما حلّ القتي البصري مدينة
بغداد ورأت عيناه عظم أبيتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر
بها من أسباب النعيم واللذة لمن أسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حز في
قلبه الحرمان وتنى أن يكون له شأن غير هذا الشأن . وتلفت حواليه فإذا
بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوف من الفقراء وذوى الحاجة
ظاهري الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش في هذه الجنة الناضرة
الزاهرة .

عند ذلك أدركت هذا القتي الماجن عزة النفس ونزت في رأسه سورة
الأنفة ، وعصفت في صدره ثورة منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان
ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا
وحظه من اللذة ، ولو تأدى به الأمر إلى الخروج على السلطان والتمرد
على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليس خليفة يقوم سواء ، أو مخيف^(١) سبيل
بكل فتى لا يستطار جناه إذا نوّه الزحّان^(٢) باسم فتيل
لنخمس^(٣) مال الله من كل فاجر أخى بطنه للطيبات أكل

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف أحدهما إلى الآخر (٣) تأخذ خمس المال

ولقد كانت أمور الخليفة كلها في ذلك الحين إلى وزرائه البرامكة
أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ،
ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويسقطون ، ويحكمون
في كل شأن بما يرتضون . وهم أهلٌ لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأي
وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على حسن السياسة ، ومصانعة
الحوادث والناس . وكانت دورهم بالشاسية - في الموضع المعروف بسويقة
خالد - مناط الآمال ومحطّ الرحال لطلاب المعالي والأقدار الرفيعة من ذوى
الطموح والهمة ، كما كانت سوقُ العلم لديهم قائمةً نافقةً ، وبضاعةُ الأدب
عندهم رائجةً رابحةً . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الأمر عليهم ، ليملا
يديه من نواهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له إلى الخليفة سببا . فمدحهم
ولكنهم لم يحققوا رجاءه كله . وكانت نغمته كلها على جعفر البرمكي ، فأقذع في
هجائه لقلّة عطائه دونهم ، وتعمّده سوء الشهادة في شعره ، ومدافعتة إيادها استطاع
عن مجلس الرشيد . وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهدي وغيرهم
من الهاشميين وكان يناديهم ويلازمهم . وكان ممن نادىهم القاسم بن الرشيد ،
ولقى القاسمُ منه أشياء كرهها وكُرّهت له ففارقه . وكذلك اتصل الشاعر
بالفضل بن الربيع ، ثم انقطع له ولآله بعد أن استوزره الخليفة على أثر
نكبة البرامكة .

ولم يكن النواسى ، مع اعتماده في طلب العيش على الكبراء وأرباب
الدولة ، بالذى يتحاور ويتهضم نفسه لهم ويستشعر الضعة والصغار في ناحيتهم -

فقد كان يمنعه من ذلك شعوره القوي بما للفن الذي يعالجه من شأن
وقيمة ، ومعالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة . ويظهر ذلك أجلى ظهور
فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريباً من دور بني نوبخت بنهر
طابق وعندة جماعة ، فجعل يمرّ بأبي نواس القواذ والكتاب وبنو هاشم
يسلمون عليه وهو متكى ممدود الرّجل لا يتحرك لأحد منهم . وإذا جلساؤه
ينظرون إليه قبض رجلية ووثب ، وقام إلى شيخ قد أقبل على حمار له .
وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس . ووقف أبو نواس يحادثه ،
فلم يزل واقفاً معه يراوخ بين رجلية يرفع رجلاً ويضع أخرى ، حتى فرغ
الحديث ومضى الشيخ .

ولقد حجج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضل بن الربيع .
وسعى في ركاب الخليفة جماعة من الشعراء ، وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس
ومحمد بن منذر من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية
الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمدح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه . وكان ابن
منذر قد هياً في مدحه قولاً أجاد تنميته وتنوّق فيه ، وكان الرشيد يسأل
عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مراتٍ على مدائحه صلوات سنية . فلما كان
يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن
يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم » . وقد كان
البشر ظاهراً في وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتنكر وعبس في وجهه .

وأضاف الفضل: «مُرُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْشُدَكَ قَوْلَهُ فِيهِمْ: أَنَا نَا بَنُو الْأَمْلَاقِ
مَنْ آلِ بَرْمَكٍ»، فأمره الخليفة أن ينشد. فلما أتى، توعدده وأكرهه. فأنشد
الشاعر القصيدة، ثم أتبع ذلك بقوله: «كَانُوا أَوْلِيَاءَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَيَّامَ
مَدْحَتِهِمْ، وَفِي طَاعَتِكَ، لَمْ يَلْحَقْتَهُمْ سَخَطُكَ وَلَمْ تَحْلَلْ بِهِمْ نَقْمَتَكَ. وَلَمْ أَكُنْ
فِي ذَلِكَ مَبْتَدِعًا، وَلَا خَلًّا أَحَدًا مِنْ نَظَرَاتِي مِنْ مَدْحِهِمْ. وَكَانُوا قَوْمًا قَدْ
أَخْلَتْنِي فَضْلُهُمْ وَأَغْنَانِي رَفْدُهُمْ، فَأَثْنَيْتُ بِمَا أَوْلُوا». فلم يتم قوله حتى كان الخليفة
قد نادى «يَا غَلَامَ الْعُلَمَةِ عَلَى وَجْهِهِ». فلفطوا الشاعر حتى سَدِرَ بَصْرُهُ
وَأَظْلَمَ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ الْمَجْلِسِ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ اسْحَبُوهُ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ:
«وَاللَّهِ لَأَحْرَمَنَّكَ، وَلَا تَرَكْتُ أَحَدًا يُعْطِيكَ شَيْئًا فِي هَذَا الْعَامِ». فسحبوه
حتى أخرج وهو لا يعي ما حوله. فإذا بشاب قد وقف عليه ثم قال: «أَعْرَزُ
عَلَى وَاللَّهِ يَا كَبِيرَنَا بِمَا جَرَى عَلَيْكَ»، ثم دفع إليه صرّة وهو يقول: «تَبْلُغُ
بِمَا فِي هَذِهِ». فظنها ابن مناذر دراهم، فإذا هي دنانير تبلغ المائة وأكثر.
فسأل ابن مناذر في دهشته وهو لم يبصر بعد من عشوته: «مَنْ أَنْتَ؟ جَعَلَنِي
اللَّهُ فِدَاءَكَ». فقال هذا الأريحي: «أَنَا أَخُوكَ أَبُو نَوَاسٍ، فَاسْتَعْنِ بِهَذِهِ
الدنانير، واعذرني». فقَبِلَهَا الزميل المنكوب وقال: «وَصَلِّكَ اللَّهُ يَا أَخِي
وَأَحْسَنَ جَزَاءَكَ».

ونحب أن نرجع بهذه المناسبة إلى ما وقع من ابن مناذر في موسم الحج
سابق، إذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر في هزمية لكل

منهما أنشدها في وصف الحر ، فحكى ابن منذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسراً . فلا شك في أن القاري يرى معنا ما تنطوي عليه وقفة النواسي بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الرملة والترفع عن الشبابة . ومهما قيل من عظمة من الفضائل الخلقية ، فإن هذه وحدها فيه شاهد صدق على وفور حظه من حساسية الإنسان الحي ، وأريحية الشاعر الذي ولد شاعراً .

وأخيراً نفرغ للكلام عن مبلغ علاقة أبي نواس بالخليفة هارون الرشيد وفيها موضع خلاف كبير . فالذي يتقرر في الأذهان من مطالعة قصص مثل « ألف ليلة وليلة » ، وكتب مثل « إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس » هو أن الشاعر كان أشبه بمضحك للخليفة ، يتفككه بأحاديثه ونوادر أفاعيله . والمقرر في أسفار التواريخ المعول عليها أن الذي كان مضحكاً للخليفة ومحدثاً فكها هو ابن أبي مريم المدني ، فكان الرشيد لا يبصر عنه . وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن بوابه منزلاً في قصره وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه . وكانت له نوادر وأفاعيل غاية في الجرأة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهذا بعينه ما يحكى عن نوادر أبي نواس مع الخليفة هارون . وهي حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة إلى غير صاحبها . وقد قيل في أول اتصال لأبي نواس بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين : « أطلب لي رجلاً يصلح للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فدل عليه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشعر

بديهاً، فحسُن موقعه عند الرشيد، وأمر له بمال . وكان ذلك سبب اتصاله به .
وكان أبو نواس يحدثه من قبَلُ بنوادر الناس ، ولكن من غير أن يفك
بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك . فقال له الرشيد ذات يوم : « حدثنا
يا أبا نواس » . فقال : « لا يحضرنى شيء » فقال الخليفة : « بحياتي إلا
ما قلت شيئاً » قال : « كان الكذب عملي ، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين » .
فضحك الرشيد وقال : « هذا أحب إلي من الحديث » . ويروي لأبي نواس
مع الرشيد نوادر لا حصر لها ، وكلام كثير من المجون والخلاعة ، وماجريات
تدل على حضور بديهته وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه .

وقيل إنه إنما حصل على هذه المسكاة عند الرشيد بأنه كان إذا بكر
إليه سأل خواص أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك
الوقت، ثم ينشده أشعاراً لطيفة في مطابقة ذلك فيطيببها نفساً . فمن ذلك أنه
كان يوماً مع الرشيد في قصره، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية
من جواريه على غفلة منها فوجدها تغسل وقت الظهر، فلما رآته تجلّت بشعرها
فأعجبه ذلك منها . فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة الى مجلس سمر الخليفة
أشده :

نَضَّتْ عنها التَّمِيصَ لِيَصَبَّ ماء	فورَدَ وجهَهَا فرطُ الحياءِ
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرَّتْ	بمعتدلِ أرقٍ من الهواءِ
ومدَّت راحةً كالماءِ منها	إلى ماءِ مُعدِّ في إناء
فلما أن قضتْ وطراً وهمتْ	على عجلٍ إلى أخذِ الرِّداءِ

رأت شخصَ الرقيب على التّداني فأسبلتِ الظلامَ على الضياء
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ وظلَّ الماءُ يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها كأحسن ما يكون من النساءِ
فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفاً ونطعاً يا غلام ! ». فقال
الشاعر : « ولمَ يا أمير المؤمنين ؟ ». فقال : « أمعناً كنت ؟ » قال : « لا ،
وإنما شئٌ خطر لي بالبال فقلتُهُ ». فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة .

هذا وأمثاله يزعمه بعض الكتاب وقيسون عليه ويضيفون إليه .
فيجعلون لأبي نواس عند الخليفة هارون منزلةَ النديم الذي داخله وخالطه
وانبسط إليه وتكشّف معه ، حتى إنه أخذ المقام الأول بين الندمان وبني
لنفسه في نهر طابقِ الدور التي لم يَبين مثلها عطاءَ الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علماء بأحوال
أبي نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد
موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وإنما دخل على
محمد الأمين ، وأنه ما ملك عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم !
وأغلبُ الظن أن الفريقين ذهباً مذهب الغلو في الوهم ، وأن القولين
لا يسلمان من المبالغة والسرف في الجزم . ولكي نتبين وجه الرأي ، يحسن
أن تتمثل حياة البلاط في ذلك العهد .

كان هارون في تفويضه أمور الدولة وتديورها إلى البرامكة يجد من وقته

الفراع للتلمي بنعيم الأسرة ، بين زوجته وأخصهن بالمكانة عنده زبيدة ،
وأمهات أولاده اللاتي يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين عرف
منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنهم عندنا ذكراً الأمين والمأمون
وسائر أفراد بيته . وكذلك وجد الخليفة الفراع للجلوس الى أهل الفقه
والأدب ، وللخولة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب . وقد اشتهر بشرب النبيذ
الذي كان يرخص أهل العراق في شربه . وفوق هذا جميعه كان يحتفل بإحياء
أبيه ما عرف في بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام الغنم
والغنيات على أنواع المعازف والملاهي .

ولا عجب فأولاد المهدي كلهم من محبي الموسيقى لما كان يجتمع في قصر
أيهم من القيان ، ولطول ما تردد في مجلسه من الغناء والألحان . وكان
هارون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان
مما يزيد في سروره بالشعر وطربه عليه أن يعمل فيه ما يوافقه من اللحن
ويفنى له . ولكنه على كل حال كان من أحكم الناس بصرأ بالشعر وأصحهم
تذوقاً لجيده وأشدهم تأثراً به . فلا يمكن وهارون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى
عليه شأن شاعر كأبي نواس وألا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه .
وإذا كان العقول لا يكفي ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه إسحق
الموصلى من تقديم الرشيد لشاعر نامع ما كان من ممرارة جعفر البرمكي في أمره
وتعصب إسحق نفسه عليه وقتئذ لشيء جرى بينهما حتى صار لا يعد أبانواس

البتة ولا يرى فيه خيراً . ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ، قال :

قال لي الرشيد : يا اسماعيل ! أبغني وصيفةً مايحةً مقدودةً شكِّلةً ، حلوةً متكلمةً ، ظريفةً عالمةً ، تسقينني ، فإن الشرب يطيب من يد مثلها . فقلت : « ياسيدي ! على الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيار - يريد أبو نواس - وامثل فيها ما حدث في مثلها لك » . قلت : « ياسيدي ! فما قوله ؟ » فقال الرشيد :

« من كف ساقيةً ناهيك ساقيةً كانت لربِّ قِيانٍ ذى مغالبةٍ فقد روت ووعت عنهن ، واختلفت حتى إذا ما غلاماء الشباب بها وجَّست بحفَى اللحظ فأنجمشت تمت فلم ير إنسان لها شهباً تلك التي لو خلَّت من عينٍ قيمها	في حسن قدِّ وفي ظرفٍ وفي أدبٍ بالكشخ محترفٍ ، بالكشخ مكتسبٍ ما بينهن ومن يهوين بالكتب وأفعمت في تمام الجسم والقصب وجرت الوعد بين الصدق والكذب فيمن برا الله من عجمٍ ومن عرب لم أقص منها ولا من حبها أربي »
---	--

وأقطع مما تقدم في تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدره ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب أبو نواس عنا وعن إخوته غيبةً طويلةً متصلةً فلم نعرف له خيراً . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثراً ، حتى مضى نحو من سنة ، فظن أنه قتل . وبلغ ذلك الرشيد فقال : « والله إن صح أنه قتل لأقتلن بقاتله ولو كان محمداً ولدي . انظروا كل من كان هجاء من الناس

فاكتبوا اسمه وارفعوه إلى . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على رأس الحول ، إذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا علي ! قد غبت عنا هذه الغيبة فعممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت في موضع ارتضيه وأشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحد من إخوانه إلا عدله ، وقالوا : « إن في هذا تعريضا لنفسك للآفات . فأنشأ يقول :

إني لفي شغل عن العالمين بالراح والريحان والياسمين
عند غزال حسن وجهه قلبي حبيس بهواه رهين

ونذكر إلى جانب ذلك حديث حسين بن الضحاك الشاعر - وقد كان وأبو نواس ترابين نشأ في مكان واحد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين - قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلي وأقام مدة ، واتصل بي ما آل إليه أمره ، وبلغني إثارة السلطان وخاصته له ،

فخرجت عن البصرة إلى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت في الشعراء ، وهذا كله في أيام الرشيد ، إلا أنني لم أصل إليه » .

وأخيراً ما نقله بعض الرواة عن مطيع - وكان خادماً للبركة ثم دخل بعدهم في خدمة الرشيد - قال : كنت واقفاً على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس (وذلك بعد فقوله من رحلته إلى مصر كما سيأتي) فقال له الرشيد : أنشدني قولك في الخصيب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتي » فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

فإن يك باقٍ إفكٍ فرعون فيكم فإن عصا موسى بكفَّ خصيب

قال له الرشيد : ألا قلت : « فباقي عصا موسى بكف خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لي » .
وأحسننا بعد هذا الذي سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين إذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال البرامكة .

ولكن الذي لا نرجحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومنادمته له على الوجه الذي يقولون . فقد كان خلفاء بني العباس حتى ذلك الحين - مع تفرج من تفرج منهم ببعض اللعب واللهو - محافظين على وقار الملك . كما أن هؤمهم لم يكن كله لهو ترف . فقد كان المهدي مولعاً بالصيد واللعب بالدبوق والصوالة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان في الميدان ، إلى جانب لعبه بالكرة والطباطب ورمييه في البرجاس بالنشاب مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى في خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذل وطرح الاحتشام . فالمهدي كان شديد الحب للنساء ، ومع هذا كان ينهى بشاراً عن الفحش في الغزل ، وإذا حنّ إلى سماع شيء منه قال لبشار : « قل في الحب شعراً ولا تطل ولا تسم أحداً » وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبي العتاهية في عتبة متغزلاً :

ألا إن ظلياً للخليفة صادني ومالي على ظلي الخليفة من عدوي
غضب الرشيد وقال « أسخر منا ، فعبث ! » . وأمر بحبسه وطال في الحبس مكنته . وكان المهدي يسمح لمنادميه في مجلس السماع أن يشربوا

وإن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى إبراهيم الموصلي يشرب في منازل الناس ، ويتبدل معهم ويحيثه منتشياً ، أمر به فضرب وحُسن . والرشيد على حبه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلي في كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحجّ ومعه مائة من الفقهاء ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابعة والكسوة الظاهرة . وكان يكره الخوض والمراء في الدين ، وتُسرع دمعته حتى تخضلّ لحيته لوعظ الواعظين .

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح في العقل اتخاذهم لمثل أبي نواس جلساً ملازماً ، وإنما جاز لأبي نواس أن يكون ذلك النديم حين وليّ الخلافة محمد الأمين .

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد في خزائن الدولة والمتحكم في رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وإن لم يكن في طبقتهم في هذا الباب قد كانت له مع ذلك في المديح أبياتٌ يعدونها من غرر الشعر وفرائده .

وقد نظم الشاعر في انتصارات جيوش الخليفة في آسيا الصغرى على جيوش الروم - حين قطع صاحبهم تقفور الجزية - قصيدةً في مدح الرشيد يقول فيها :

إني حَلَفْتُ عَلَيْكَ جَهْدَ أَلِيَّةٍ ^(١) قَسَمًا بِكُلِّ مَقْصَرٍ وَمَحَلِّقٍ

لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
وصناعة الشعراء إن أنفقتها^(١) نفقت، وإن أكسدتها لم تنفق

وفي سنة ١٨٩ تمّ للرشيدي أخذ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين
فالمأمون فالمؤمن، واحداً بعد الآخر. فقال شاعرنا في ذلك :

تبارك من ساس الأمور بعلمه وفضل هارونا على الخلفاء
نزال بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمان
ولما أن شخص هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب عام
١٩٠ واتخذ قلنسوةً يلبسها مكتوباً عليها (غاز - حاج) تبارى الشعراء في
ذكر ذلك، فقال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طير^(٢) وفي أرض الترفه فوق كور^(٣)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا في ذلك :

هارون ألفنا ائتلاف مودة ماتت لها الأحقاد والأضغان
في كل عام غزوة ووفادة تبت بين نواهما الأقران^(٤)
حج وغزو مات بينهما الكرى باليجمات شعارها الوخدان^(٥)

(١) روجتها (٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير

(٤) تنقطع حبال المطايا (٥) اليجمات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير .

والظاهر أن الشاعر لم يكن موفقاً في هذا الميدان ، وأنه كان لغيره فيه قصبُ الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فعزم على الخروج إلى مصر .

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قوم لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلد من العمال على الأمصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك في ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصب بن عبد الحميد العجمي الذي تنسب إليه منية بن خصب المعروفة اليوم في صعيد مصر بالمنيا . وكان الخصب هذا رئيساً في أراضيه ، فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي ، ثم انتقل إلى إمارة الخراج على مصر كما روينا . والذي عليه الرواة أن الخصب كتب إلى أبي نواس يستزيه وهو من خواصه فخرج إليه . وخرج في وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبي نواس ، حتى اجتمعوا بالرقّة . فقال بعضهم لبعض : « هذا أبو نواس يعضى إلى الخصب ، ولا فضل فيه لأحدٍ معه ، فارجعوا عن قُرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار إليهم مسلماً ، ثم قال لهم : « قد بلغني ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فإني والله لأبدأ إلا بكم » . فشكروه ، وسكنوا إلى قوله ، ومضوا حتى قدموا مصر . واتصل خبرُ أبي نواس بالخصب ، فجلس له جلوساً عاماً في مجلس جليل . ودخل أبو نواس إليه ، والشعراء في دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيها الملك المؤملُ قد استزرت عصابة فأقبلوا
وعصابة لم تستزرم طفلوا رجوك في تطفيلهم وأملوا
وللرجاء حُرمة لا تُجهل فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصبُ قوله وكلُّ مَنْ حضره ، وقال له الخصب : « من شريكك ؟ » فعرفه أبو نواس خبر الشعراء ، فقال : « اجلس فقد رُ لهم صلاتهم ، على حسب مقاديرهم في نفسك » . فقدّر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقع بإطلاقها ، فأطلقت من وقتها . وقال له : « اخرج ففرّقها عليهم ، واصرفهم » ففعل ذلك ، وعاد إليه .

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الإكرام وقرّبه ورفع موضعه . ولما استقرّ به المجلس استنشده وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس : « هنا جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنّ . فأذن لهم في الإنشاد ، فإن كان شعري نظير أشعارهم أنشدت وإلا أمسكت » . فاستنشدهم الأمير فأنشدوا المدائح فيه . فتبسم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره . ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تتلقّف ما يأفكون » . فقال : « هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغته مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسور ما يرّجى لديك عسيرٌ
وفي القصيدة عدا المديح المعتاد وصفٌ للقافلة السيارة ورحلته معها من

العراق عابراً البيداء إلى البلاد الشامية قاصداً مصر . وقد أتى الشاعر في هذه القصيدة على المنازل التي مرّ بها والبلاد التي حلّ فيها .
ولقد اهتزّ الخصب لما جاء على لسان الشاعر من المديح وأمر له بالجوائز السنوية .

ويقال ان المصريين شغبوا في هذه الأثناء على الخصب لزيادة الأسعار واشتداد الغلاء . وماج الناس في المسجد الجامع وقد تواعدوا أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصب نفسه وهو على شربه وعنده أبو نواس . فقال الشاعر :
«دعني أيها الأمير أكرمهم» . فقال الأمير : «ذاك إليك» . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ، وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا تثبوا وثب السفاة^(١) فتحموا على حدّ حامى الظهر غير ركوب^(٢)
فإن يك باقى إفاك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب
فلما سمعها الجمع تفرّقوا فلم يبق منهم أحد .

ونظم الشاعر أكثر من قصيدة في الخصب ، نختمها بقوله :

أنت الخصب وهذه مصر فتدوّقا فكلا كما بحر
النيل ينعش ماؤه مصراً وتذاك ينعش أهله العمر

وقد أصدر الخليفة في ٧ رجب سنة ١٩١١ أمره لواليه على مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج. فانتهد بذلك إمارة الخصب. وعليه تكون إمارة الخصب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠٠ إلى ٧ رجب سنة ١٩١١ وتكون السنة التي قيل ان أبو نواس قضاها في ربوع مصر واقعة في هذه المدة. ومدح أبو نواس في مصر آل حديد وغيرهم ، فمن حرموه عاد فذمهم على عادة الشعراء . وكان يستحب من مصر جوها السجسج ويقول غابطاً لأهلها « إن دنياكم مستوية لا حرّ ولا برد عليكم . وإنكم تتصرفون في حوائجكم سائر نهاركم في أوله وآخره وفي وسطه ، وليس هذا لأحد غيركم » ، إلا أنه كان ممتلي القلب رعباً من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والأخبار عن تماسيحه . ولا نشك في أنه قضى المدة التي قضاها في مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه في بعض شعره بأنه من خوف التماسيح لم ير النيل رأى العين اللهم إلا في القلال والكيزان :
أظهرت للنيل هجراناً ومقليةً إذ قيل لي إنما التماسح في النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كتب فما أرى النيل إلا في البواقي
كما أنه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها إلا ما كان يحمل إلى الخصب . وقد سقط من الشعر الذي قاله بمصر والشام كثير . ويحكى أنه لما انصرف من مصر مرّ بحمص فرأى كثرة خماريها ، وجودة الشراب بها ،

وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه
منه ، فأقام بها مدة معتبماً ومصطبجاً . ثم مرّ بعانة فسمع اصطخاب الماء في
الجدول ، فأقام فيها ثلاثاً يشرب من شربها ويتغنى بقول الأخطل :

من خمر « عانة » ينصاع الفؤاد لها بجدولٍ صخبِ الآذَى موارٍ
فلما دخل إلى الأنبار تسرع إلى بغداد وقال : « ما قضيتُ حقَّ قطر بلِّ
إن لم أبطؤ بها » . فعدل إليها ، فأقام ثلاثاً حتى أتلف فضلةً كانت معه من
نفقته وباع رداءً مُعلماً من أردية مصر . وقال عند انصرافه من قطر بلِّ :

طربتُ إلى قطر بلِّ فأتيتها بألفٍ من البيض الصحاح وعينِ
ثمانين ديناراً جياداً أعدّها فأتلفتها حتى شربتُ بدِينِ
رهنتُ قيصاً سابرياً وجبّةً وبعْتُ إزاراً مُعلّم الطرفينِ
وقد كنتُ في قطر بلِّ إذ أتيتها أرى أنتى من أيسر الثقَلينِ
فروحتُ عنها معسراً غير موسرٍ أقرطس في الإفلاس من مثنينِ
يقول لى الخمار عند وداعه وقد ألبستنى الراحُ حُفَّ حنينِ
« الأرحُ بزِينِ يومِ رُحْت مودعاً » وقد رُحْتُ منه يومِ رُحْتُ بشينِ

وعلى هذه الحال من الشوق إلى حياة بغداد ، عاد شاعرنا إليها ليستأنف

فيها باطله ولهوه بعد طول حنينه في مصر إليها :

إذا ذُكرتُ بغدادُ لى فكأنما تحرك في قلبي شباةً سنناني

وفي هذه الحقبة كان الخليفة هارون الرشيد يزيد مع السنّ والعلّة شدةً

وترمّتا . وفوق ذلك فقد ذهب البرامكة ولم يفن عدائهم غناءهم ولم يقوموا مقامهم ، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الأمور وتوجيه الجيوش لحرب الروم ووقع الفتن في الأطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة إلى الغضب وإنزال النقمة .

وقد أصاب الشاعر السكير الماجن من ذلك الكثير . فخبسه الخليفة في المطبق أكثر من مرة لشربه الخمر مجاهراً بها متهتكاً فيها . فكان يقضى وقته يعبت مع من يكون معه في الحبس ويلعبه الشطرنج والنرد . واتهم أبو نواس كذلك أكثر من مرة بالزندقة . من ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة . فدخل ، فقام في الصف الأول ، فقرأ الإمام الآية « قل يا أيها الكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبيك » . فلما قضيت الصلاة اندفع إليه المصلون ولببوه . وانتهى أمره إلى أن دفع به إلى حمدويه صاحب الزنادقة . ولولا علم حمدويه أنه ماجن وليس هو بحيث يُظنُّ ، لكان قد قضى عليه .

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبي نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها إلى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلساً ، وأفاض من حضره في ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتصل بالذكر بأبي نواس ، فمزم عليه سليمان بن أبي جعفر ،

فقال : « يا أمير المؤمنين ! كفر بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة » . وقد كان نعى إلى الرشيد من خبره شيء . فقال : « يا عم ! هل تأثر عنه من ذلك شيئاً ؟ » . قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظرًا في الدين ما الأمر ؟ لا قدر صح ولا جبر !
ما صح عندى من جميع الذى يذكر إلا الموت والتبر
ثم قوله أيضا :

باح لسانى بمضمرة السر
وليس بعد المات مرتجع
وذاك أنى أقول بالدهر
وإنما الموت بيضة العقر

فاستشاط الرشيد غضبًا وطار شققًا وقال : « على ابن الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « إن أذن لى أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأفظع مما أنشده أبو أيوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله فى غلام نصرانى :

تمر فاستحييك أن أتكلما
ويهتز فى ثوبيك كل عشية
ويثنيك زهو الحسن عن أن تسأما
بجسبك أن الجسم قد شفه الضنى
قضيبت من الريحان شب منعبا
أليس عظيمًا عند كل موحد
وأن جفونى فىك قد ذرفت دما
فولوا دخول النار بعد بصيرة
غزال مسيحي يعذب مسالما
عبدت مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال : « يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك » . قال : « هات ! » فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر :

وملحة بالعدل ذات نصيحة ترجو إنابة ذي مجون مارق
بكرت تبصرني الرشاد وهمتي غير الرشاد ومذهبي وخلاتي
فأجبتها: « كفى ملائك إنني مختار دين أمتي وجثالي
والله لولا أنني متخوف أن أبتلى

وقطع الإنشاد. فقال له الرشيد: « بماذا ويلك ! ». فاستغفاه ، فقال :
« ويلك ! بماذا » فقال :

..... بإمام جورٍ فاسق

فضج المجلسُ بأهله ، وأنكر الرشيد نفسه ، ثم قال : « امض » . فقال :
لتبعتُهُ في دينه ودخلتهُ ببصيرةٍ مني دخولَ الوامق
إنني لأعلم أن ربي لم يكن ليخصهم إلا بدينٍ صادق

فقال الرشيد للفضل : « برئتُ من المنصور إن لم يبت هذا الكلب في
المطبق لتُنكرني قولاً وفعلاً » . وكان أبو نواس نعى إليه أخيراً فساخ في
الأرض . فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك ، فوجد ، فأودع
المطبق . ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها إلى أن أطلق ، فقال في ذلك :

الله فرج لي برأى الفضل من حلق الكبولِ
وأقاني عنتَ العشا ر وقد أبت من المقيل

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ إلى الرشيد من قوله يفتخر بقحطان التي يدعيها ،
ويسب عدنان ويهجوها في قصيدة طويلة يقول فيها :

فانخرُ بقمحطان غير مكتئب خاتمُ الجودِ من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها إذ زلت الهامُ عن مناكبها
واهيجُ نزاراً وأفرّ جلدتها وهتك الستر عن مثالبها

وكانت العصبية لا تفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم قراء التاريخ العربي . وكانت في ذلك العهد تهيج بالشام خاصة ، وقد بلغت في بعض أطوارها هيجاً تشيب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلاقى كل مرة عنتاً في إخمادها ، يوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف ، وكانت مع ذلك لا تسكن حتى تعود . فلما بلغت إلى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثناءؤه للنبي محمد دون سائر قريش « ذات المتاجر » في هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه إلى أن شطر الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحب قريشاً حب «أحمدها» واعرف لها الجزل من مواهبها
إن قريشاً إذا هي انتسبت كان لها الشطر من مناسبها
قام مهدي هاشم - أم موسى الخير - منا ، فانخر وسام بها
إن فاخرتنا فلا افتخار لها إلا التجارات من محاسبها
وإنها - إن ذكرت مكرمة - جاءت تجارتها بغالبها

وإذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة ، فذلك أن الأمر كان يعدو شخص الخليفة الهاشمي القرشي إلى تعريض البلاد للفتن الداخلية .

فأمر الخليفةُ بالشاعر المنكود فألقى في غيابة المطبق انتظاراً للموت فبقى فيه دهرًا . فجعل يتشفع بالوزير الفضل بن الربيع وهو لا يستطيع له شيئًا . فقال متحسرًا لما صار إليه ، متندماً لما تورط فيه ، متسخطاً على الفضل :

على مرَّجبي مني السلامُ ، وبرزتني وغدواتٍ لهُوٍ قد فقدتني مكاني
فلو أن خدتيَّ القريبين أبصرا خضوعيَّ للسجَّانِ ما عرفاني
ولو أبصراني والقيود تقودني ومشيتُ إلى البوابِ بالنجشان^(١)
لحى الله من أمسى يرشح نصره بفكِّ إيسارٍ منه عند يماني
ومالي وقحطانًا وبثَّ مديحها ونصبي لهاً نفسي بكل مكان
فإن أمسٍ لا تُخشى لسيفي فتكة فلا تأمن يا (فضل) فتك لسانی
وإني لأرجو أن أراك كجعفر^(٢) ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هارون مترلاً يرجو وساطته ، ويعلن لله توبته وإنابته :

تلقي المراتب للحسين ذليلاً وإذا سواه يرومها تتصعبُ
إن الإمام إذا اجتباك لسره لمسدِّدٍ فيما أتى ومصوبُ
لم يبئل مثلك عفةً فيما بلا وحزامةً في كل أمرٍ يحزبُ
وخلطت خوفك للإله بخوفه فعلمت ما تأتي وما تتجنبُ

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة في الثمن بقصد التقرير وإيقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكي الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه بيغداد فجعل نصف جسده على الجسر

الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط

أبلغ - هُدَيْتَ - إلى الإمام رسالةً عني بأني بعدها أستعجب
وشهادتي أني حليفُ عبادةِ فابلوا على الأيام ذاك وجرّبوا
وكتب إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيدة :
جَعَلْتُ عُبَيْدًا دُونَ مَا أَنَا خَائِفٌ وَصَيَّرْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ يَدِ الذَّهْرِ
أشار إليه الناسُ من كلِّ جانبٍ وَقَالُوا أَبُو عَمْرٍو لَهَا وَأَبُو عَمْرٍو
ثمَّ التَّجَأَ إِلَى الْأَمِيرِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَيْسَى بْنِ أَبِي جَعْفَرِ النَّصُورِ مُسْتَعِيثًا
مستصرخًا :

رَفَعَ الصَّوْتَ فَنَادَى يَا أَبَا عَيْسَى الْجَوَادَا
كُنْ عَمَادًا - يَا ابْنَ مَنْ كَا
وتداركُ جسدًا قد مات أو قد قيل كادا
قُلْ لَهُ إِنْ قَالَ « هَلْ تَا ب ؟ » « نَعَمْ تَاب ، وَزَادَا »
واضمن التوبة عَمَّنْ كَلِمَا أَطْرَاكَ عَادَا
ولما أعيته الحيلة ولم تنفع الشفاعة ، توجه إلى الخليفة نفسه ضارعًا
مستغفرًا ذاكراً محامده معدداً ما أثره :

بِعَفْوِكَ - لَا بِجُودِكَ - عُدْتُ لِأَبْلِ
فَلَا يَتَعَذَّرُنَّ عَلَيَّ عَفْوُ
فإني لم أخنك بظَهْرِ غَيْبٍ
بِرَاكِ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ عِزًّا
لقد أرهبت أهل الشرك حتى
بفضلك يا أمير المؤمنين
وسعت به جميع العالمينا
ولا حدثت نفسي أن أخونا
وحصناً دون بيضته حصينا
تركهم وما يتدمرونا

تزورهم بنفسك كل عام زيارةً واصل للقاطعيننا
ولو شئت اكتفيت إلى نعيمٍ وقاسى الأمرَ دونك آخرونا
فشفعُ حسنَ وجهك في أسيرِ يدين بحبك الرحمن ديننا
إذا ما الهولُ حلَّ بدار قومٍ فليس لجار مثلك أن يهونا

ولكن الخليفة كان في شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة
الفتوق قبل اتساعها في أطراف ملكه . ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة
عليه لحرب رافع بن ليث الثائر في خراسان مصطحباً معه المأمون الذي جعلت
له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤمن على الرقة وكان
الخليفة قد أخذها مقرّاً له ونقل إليها خزانته في ذلك الحين ، واستخلف على
بغداد عاصمة الخلافة وليّ عهده والخليفة من بعده محمداً الأمين .

تذمير الأئمة

كان محمد الأمين ببغداد حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد في غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، في قرية بالقرب من طوس ، بعلة في حشاه كانت لا تزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحوّل من قصر الخلد وكان نازلاً فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبي جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فصلى بهم وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا إليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقاها ابنها الأمين خارج المدينة في جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وأنزلها معه في قصر الخلافة .

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضل جميع ما في المعسكر مما أوصى به الخليفة الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو يقول : « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره » . وأغرى القواد والجند بالرحيل واللاحق بالأمين ، ففعل أكثرهم محبةً منهم بالحق بأهلهم ومنازلهم . فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفة الجديد ما قدمه فاستورزه .

وكان الأمين قد تلقى في صباه على الكسائي وعلي بن المبارك الأخر وغيرهما من المؤدبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فأقرأه القرآن ، وعرفه الآثاء ، وعلموه السنن ، ورَوَّوه الأشعار ، وبصَّروه بمواقع الكلم وبدئه ، مع ما يجب على الخليفة العباسي من تعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، وما الى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه ، ومع ذلك كانت طبيعة اللهو هي الغالبة عليه ، وظل على ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والإماء في رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بني هاشم بأهوائهم إليه تعصباً لو لد الهاشمية على ولد الفارسية ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر المأمون .

فلما أن أفضت إليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت - أي بعد البيعة له في بغداد بيوم ، فأمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة في المدينة للصوالة واللعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتبت له

الأمر واطمأن باله من ناحية الملك ، وجّه في طلب المئمين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وأبتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ، وصير الخصيان خلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشربه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً ستمام الجرادية ، وفرضاً من الحبشان ستمام الغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخصيان في المنادمة والشرب . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشرطٌ يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظٌ سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس^(١) لعزّ على المقيم بدار طوس

وبديهي ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين الندمان والخصيان أن يجرى في الجماعة ذكرُ المجون والمجان ، وأن تروى - فيما هم بسبيله - طرائف النوادر والأخبار ، ونشد لطائف الأشعار . ولا نزاع في أن النواصي كان أشهر خلعاء ذلك الزمان وأجرام شعراً على كل لسان ، فلا جرم يتردد في المجلس اسمه ويستعاد شعره . والخليفة لأشك عندئذ ذا كرهه ، فقد دخل عليه مع الكسائي في بعض درسه ، وكان يغشى حضرته ويشترك في منادمته أيام إمارته . فلما أن سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوس لما يرّك في المطبق » فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى إسحق بن فراسة وسعيد بن

(١) يريد الرشيد لدفنه بطوس

جابر أخو الخليفة من الرضاة إلى أبي نواس في محبسه فقال له يُطمئنه :
« إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس ». فنظم الشاعر أبياتاً
بعث بها إليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام السامرون ولم يؤاسوا
أمينَ الله ، قد مُلكتَ مُلكاً عليك من التقى فيه لباس
ووجهك يستهلّ ندى فيجيا به في كل ناحية أناس
كأن الخلق في تمثالِ روح له جسد ، وأنت عليه رأسُ
أمينَ الله ، إن السجنَ بأسُ وقد أرسلتَ ليس عليك باس

فلما أشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشيّة قال : « صدق ، على به »
فغىء به في الليل فكسرت قيودُه وأخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو
مائل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ صبيغ من جوهر الخلافة بحتنا
يا أمين الإله يكلؤك الاله ه مقياً وظاعناً أين سرتنا
إنما الأرض كلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كمتنا

وسرّ الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه .

ومما يجب ذكره لأبي نواس شاهداً على طيب نفسه ، وسلامة صدره
من الضغن الذي يُعمى ويصمّ ، وارتفاعه بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغيّر رأيه
في الرشيد بعد موته ، ولم يخجل من حزنٍ عليه مع حبسه إياه ، ولم يجحد إحساناً

أسلفه إليه وأسداه . فتراه لا ينسى وهو يهين الخليفة الجديد ويظهر سروره به
أن يبكي الخليفة الراحل ويذرى عليه دمه :

جَرَّتْ جوارٍ بالسعد والنحسِ فنحن في مآثم وفي عُرْسِ
القلب يبكي ، والسُنُّ ضاحكة ، فنحن في وحشة وفي أنس
يُضحكننا القائمُ الأمينُ ، ويُبكيننا وفاةُ الإمامِ بالأمس
بَدْران ، بدر ضحى ببغدادِ بالـ خُلْد ، وبدر بطوس في رسم
وقد عاد ثانية إلى رثائه في قوله :

الناس ما بين مسرورٍ وحزونٍ وذى سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونٍ
من ذا يُسرُّ بدنياه وبهجتها بعد الخليفة ذى التوفيقِ هارونٍ
كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم
بحياة مولاه الخليفة الجديد ، بما لا يخرج عن قول أبناء زماننا « مات الملك ،
ليحيى الملك » :

تعزُّ أبا العباس عن خير هالكٍ بأكرم حتى كان أو هو كائنُ
حوادثُ أيامٍ تدور حروفها لهنّ مساوٍ مرةً ومحاسنُ
وفى الحى بالميت الذى غيب الثرى ، فلا أنت مغبونٌ ولا أنت غابنُ
وكان الفضل ينزل في بغداد في الشارع الأعظم بأزاء درب السقائين ،
وقد صارت الأمور كلها إليه وفوض إليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى
ويعزل ويحلّ ويعقد عنه . واحتجب الأمين ، وفى ذلك يقول شاعرنا
يمتدح الفضل :

لعمر ك ما غاب (الأمين محمد) عن الأمر بعنييه إذا شهد (الفضل)
ولولا مواريث الخلافة أنها له دونه ما كان بينهما فضل
لئن كانت الأجساد فيها تباينت فقولها قولٌ وفعلها فعل
أرى (الفضل) للدنيا وللدن جامعا كما السهم فيه الريش والقوق والنصل
وذهب الأمين في الاحتجاب حتى عن إخوته وأهل بيته وقواده
واستخف بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواقع خلوته ولطوه ولعبه بقصر
الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذي
وباب الأنبار وغيرها ، ونافس في ابتياع قره الدواب وأخذ الوحوش والسباع
والطير . وحمل إليه ما كان في الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح ، وانقطع
عن تدبير المملكة مشغلا عنها باللهو واللعب ومعاشرة المجان ، وقسم ما في
بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه .

ولما أن رأت الملكة الوالدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين
للخصيان ورفع منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ،
أرادت صرفه عن ذلك ، فاتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت
رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبسهن الأقبية
والقراطق والمناطق ، فمست قدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن إليه ،
فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واحتضن قلبه وأبرزهن للناس في مجالسه .
فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المظومات وألبسوهن الأقبية
والمناطق . وامتلات بغداد بهؤلاء الفتيات اللواتي كانوا يسمونهن « الغلاميات » .

وكان للأمين كآبيه الرشيد تولعٌ بالغناء ، مع الفارق في وقار الوالد ونزق
ولده . وكان يهياً له في قصر الخلد مجالس غناء يُتَغَنَّى فيها ، ويُرفع له دكانٌ
عالٍ يُفرش له ويُبسط عليه بساطٌ زرعى ، وتُطرح عليه نمارق وفرشٌ في
لون البساط ، ويُصَفِّف له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمرٌ عظيم .
وتكون قيمةُ جواريه قد هيأت له مائةَ جاريةٍ صانعةٍ ، فيصعدن إليه عشراً
عشراً بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعداتٌ إليه ، وحين يستوين على
الدكان يندفعن في غناءٍ لحنٍ من اللحن بصوتٍ واحد ، ثم ينزلن ويتقدم
عشرٌ غيرهن ، وهكذا دواليك في جوٍّ فاتنٍ ساحرٍ بما يتمايل فيه من القدود
المليحة وما يتجاوب به من اللحن الفصيحة .

وكان يُجزل العطاء لأساطين الغناء في عهده أمثال إسحق الموصلى ومخارق
وعلوية وغيرهم ، حتى ليروى أنه استقدم إبراهيم بن المهدي عمه فأنحدر في زورق
إلى قصره ، وغناه صوتاً طرب له الأمينُ فأمر أن يُوقروا له زورقه ذهباً .
كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يُديرها بنفسه في أمهات
القصر الملوكي ، فإذا الصحن مملوءةً شمعاً من الشمع الكبار وكان الصحن
من ذلك في نهار ، وإذا الدار مملوءةً غلماناً ووصائف بحلّ الوشّى والجوهر ،
وإذا الجوارى والخنثون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول
والسرنايات ، والجميع في شيءٍ واحدٍ ، ومحمد في وسطهم يرتكض رقصاً في
الكرج . ولقد شهد مخارق وإبراهيم بن المهدي إحدى هذه الحفلات ،

وكان الخليفةُ وجهَ مَنْ جاءَ بهما ركضاً . وقد جاء في وصفهما لما مرَّ بهما في تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءها رسول الخليفة فقال : « قوما في هذا الباب مما يلي الصحن ، فأرفعا أصواتكما مع السرناى أين بلغ ، وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه » . فأصغياً للغناء المرّدد :

هذى « دنانيرُ » تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محبباً ليس ينساها
والله ، والله ، لو كانت - إذا برزت - نفسُ المقيم في كفيه ألقاها
فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان حلقهما مع السرناى ، ويتبعانه جذراً
من أن يخرجوا عن طبقتة أو يقصرا عنه . والخليفة الأمين يجول في الكرج
ما يسأمه ، يدنو إليهما مرةً في جولانه ، ويتباعد مرة ، ويجول الجوارى بينهما
وبينه ، حتى الغداة .

وكان محمد الأمين شهيد الحبّة للشراب قوى الاحتمال له ، يجذب بندمائه
في الشرب ويستقيم معظم الليل وعلى الزيق . وكان إذا انشأ صاح في ندمائه
« مَنْ منكم يكون حمارى » فكل واحد يقول « أنا » لأنه كان يركب
الواحد منهم عبثاً ثم يصله . ولم يكن لأحد غلبة عليه في الشرب غير
أبى نواس .

ولقد أنشد أبو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد عدة في مدحه .
واسكن القارى لها لا يلمس فيها من صدق الإعجاب بالمدحوح ما يلمسه في
هذه القصيدة التى قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

وَنَدْمَانِ يَرَى غَيْبًا عَلَيْهِ بَانَ يُمَسَى وَلَيْسَ لَهُ انْتِشَاءُ
إِذَا نَادَيْتَهُ مِنْ نَوْمٍ سَكْرٍ كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّدَاءُ
فَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ « اِيه ، دَعْنِي » وَلَا مُسْتَخْبِرٌ لَكَ « مَا تَشَاءُ ؟ »
وَلَكِنْ « يَا سَقْنِي » وَيَقُولُ أَيْضًا « عَلَيْكَ الصَّرْفَ إِنْ أَعْيَاكَ مَاه »
وَذَاكَ مُحَمَّدٌ تَفْدِيهِ نَفْسِي وَحَقٌّ لَهُ وَقَلٌّ لَهُ الْفَدَاءُ
وَلَقَدْ أَجَازَهُ الْأَمِينُ عَلَيْهَا بِكُلِّ بَيْتٍ أَلْفَ دَرَاهِمٍ .

وكان أبو نواس في بعض الأحيان لا يتورع حتى في مدائحهم الرسمية
للخليفة الشاب أن يشير إلى منادمته له وشربه معه . من ذلك قصيدته الأولى
في مديحه وهي المطولة المشهورة التي مطلعها :

يَا دَارُ ، مَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامُ ضَامِتِكِ ، وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تُضَامُ
وَهُوَ مُطَّلَعٌ فِي وَصْفِ الرُّسُومِ وَالْدِيَارِ ، تَجِيءُ هَذِهِ أَيْبَاتٌ فِي طَيِّبِ الْفِيَاقِ
وَتَجَشَّمُ الْأَسْفَارَ مِنْ أَجْلِ الْمُدْوُوحِ جَرِيًّا عَلَى الْمَذْهَبِ التَّقْلِيدِيِّ . وَلَكِنْ الشَّاعِرُ
الْقَدِيمُ لَا يَلْبَثُ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِ نَزْعَتُهُ فَيَجْرِي عَلَى طَبْعِهِ وَيُخْلِصُ إِلَى طَرِيقَتِهِ :
مَلِكٌ أَغْرَأَ إِذَا شَرِبْتَ بَوَجْهِهِ لَمْ يَعْذُكَ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ
فَالْبَهْوُ مُشْتَمَلٌ بِيَدْرِ خِلَافَةٍ لَيْسَ الشَّبَابُ بِنُورِهِ الْإِسْلَامُ
إِنَّ الَّذِي يَرْضَى الْإِلَهَ بِهَيْدِيهِ مَلِكٌ تَرَدَّى الْمَلِكَ وَهُوَ غَلَامٌ
وَلَيْسَ أَكْثَرَ مِمَّا يَرُودُهُ مِنْ اسْتِغْرَاقِ الْخَلِيفَةِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ فِي الْلَهْوِ
وَالشَّرْبِ ، وَإِظْهَارِهِ الْإِهْمَالَ لِشُؤُونِ الْمَلِكِ ، حَتَّى كَانَتْ تَمْرُ السَّنَةِ لَا يَفْرُغُ

فيها ساعةً للنظر في أخصّ الأمور، كأعمال الخراج والضياع ومتصرفات الحكام. دخل عليه يوماً إسماعيلُ بنُ صبيح كاتبه ، فإذا هو عازمٌ على الاصطباح ، وقد أحضر الندماء والمغنين وصنّت الموائد ، وأقبل الخليفةُ على مائدته وابتدأ . فقال إسماعيلُ بنُ صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضياع وجماعات العمال ، وقد اجتمعتُ على أعمالٍ منذ سنة لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخولٌ خلل في الأعمال . » فقال له محمد : « إن اصطباحي لا يحول بيني وبين النظر ، وفي مجلسي من لا أتقبض عنه ، من عمي وبنى وعمى وإخوتي ، وهم أهل هذه النعمة التي تجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فأعرضه عليّ وأنا آكل ، لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه ، إلى أن يُرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعاً أو أبرم الباقي وأفرغ منه . فحضر كتابُ الدواوين بأكثر ما في دواوينهم ، وأقبل إسماعيلُ بنُ صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر وينهى بأحسن أمرٍ ونهى وأشدّه ، ورُبّما شاور من حوله في الشيء بعد الشيء ، وكلما وقع في شيء وضع بالقرب من إسماعيل بن صبيح . ورفعت الموائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب في القدح أقلّ من رطل واحدٍ في تميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيء أسره إليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض واستنهض سليم بن علي وإبراهيم بن المهدي ، فامشوا عشر أذرع ، حتى أقبل جماعة من النفاطين ، فضربوا تلك السكتب والأعمال بالنار ، وكان

الفضل بن الربيع حاضراً . فلحق محمداً وقد شق ثوبه وهو يقول : « الله الله »
أعدل من أن يرصني ذلك » ومحمد يضحك .

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، إن وافى الأمين أجله
وولي الخلافة المأمون أن يجزيه شراً بفعلته . فجعل يزيد للأمين صرف
ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير لا يعرف
حسناً ولا يعقل قبيحاً ، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه في ليله ونهاره
ويقظته ومنامه وقعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الأمين والمأمون
ومكر كل واحد منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين
الأخوين . فقطعت الدروب من بغداد إلى خراسان وفُتشت الكتب وصعب
الأمر . وفي شهر ربيع الأول عام ١٩٤ عقد الخليفة لابنه « موسى » على
جميع ما استخلف عليه وأسقط اسم المأمون من الخطبة في بغداد وقبض على
وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان . ونما الشر بينهما . وبقدر ما كان
عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الأمين من الإهمال والتفريط
والغفول . وسارت الركبان بغدر محمد الأمين بأخيه وقبح سيرته ، مع حسن
سيرة المأمون وما كان يظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الأمين
وأنحرفوا عنه . وفي سنة ١٩٥ جهز الخليفة علي بن عيسى بن ماهان ومعه
عسكر كثيف وسلاح كثير وأموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشيعاً
مودعاً . ثم تشاغل بعدها بلهوه وبطالته وتخلي عن كل تدبير للقائد والوزير .
وشخص علي بن عيسى إلى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهر

مدينة الري، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل علي بن عيسى .
وكان ذلك جميعه ، والأمين في غفلة سادر في لذته ، منهمك في لعبه
متفرغ لصيده ونزهته . حتى ليروي أنه حين ورد نعي علي قائده ، كان في
وقته ذلك على شطّ دجلة يصيد السمك . فقال للذي أخبره « ويلك ! دعني ،
فإن كوثراً قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئاً بعد » . على أن الأمين لم
يلبث أن أفاق للخطر ، لما شاع الخبر بأن المأمون أعلن خلعته بعد أن أتمه
كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه في جميع كور خراسان
وما يليها ، فجعل الأمين يتابع إرسال الجيوش والقواد واصطنع في أموره
شيئاً من الجد .

وجعل الأمين يحمل على نفسه فيخرج لقواده وجنده وعامة رعيته بين
الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكثير عندهم ما يرونه من احتجاجه عنهم .
فكان يجلس لهم بعض الأحيان ساعة من نهار ، وبين يديه الفضل بن
الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكيناً
لهم ومراجعةً لآمالهم . وكان إذا جلس في مجلسه هذا أذن للناس عامة ،
فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشدوا . بيد
أنه لم يكن أحد منهم يتعدى إلى الاطناب والتطويل إلا أمر بالسكوت
ومنع من القول . وفي هذه المناسبات أشد أبو نواس مدائح القصار في
الخليفة الأمين ، نذكر منها قوله :

ألا ياخير مَنْ رأت العيونُ نظيرك لا يُحسّ ولا يكونُ

وفضلك لا يحد ولا يجارى ولا تحوى حيازته الظنون
فأنت نسيج وحدك لا شبيهة نحاشيه عليك ولا خدين
خلقت بلا مشاكلة لشيء فأنت الفوقى ، والثقلان دون
كان الملك لم يك قبل شيئاً إلى أن قام بالملك الأمين
وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حرّاقات في دجلة على خلقه « الأسد »
و « الفيل » و « العقاب » و « الحية » و « الفرس » ، وأنفق في عملها مالا
عظيماً ، وقد اتخذها للبرهة . وكان إذا خرج لركوبها اصطفت له الخيل وعليها
الرجال على شاطئ دجلة ، وحملت معه المطايخ والخزائن . وفي مرة من هذه
المرات كان ركوبه إلى الشماسية في الحرّاقة التي على مثال الأسد . فما رأى
الناس منظرأً ولا مسيراً كان أبهى وأحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب
أبو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن بجرأ	سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو	أهّرت الشّدق كالبح الأنياب
لا يعانیه باللجام ولا السو	ط ولا غمز رجله في الرّكاب
عجب الناس إذ رأوك على صو	رة ليث تمر مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أهروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجفاح	بين تشقّ العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما	استعجلوها بجيئة وذهاب

بارك الله للأمين وأبقا هُ وأبقى له رِواء الشباب
ملكٌ تقصُر المدائحُ عنه هاشميٌّ موقِّقٌ للصواب
ولأبي نواس غير هذه قصيدة أخرى في حرّاقة على مثال الدلفين، مطلعها:
قد ركب الدلفين بدرُ الدجى مقتحمًا في الماء قد لججا
ولما كان أبو نواس في مجاهرته بالمعاصي وتهتكه في السكر قد شاعت له
سمعةٌ قبيحةٌ، واشتهر بشهرةٍ فاضحةٍ، فقد وجد دعاةُ المأمون في منادمته
للأمين واختصاصه به وجهًا من أوجه الخيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب
عليه باحتماله إياه. فكان وزيرُ المأمون الفضلُ بن سهل ذوالرياستين يخطب
بمساويء الأمين ويحرض الناس على قتاله، وقد أعدَّ رجالًا يحفظ شعرَ أبي
نواس فيقول: « ومن جلساء محمد الأمين رجلٌ ماجنٌ كافرٌ مستهزئٌ يقول
كذا وكذا » وينشد قوله:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ
وينشد قوله:

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبةٍ « قُم - سيدي - نعص جبار السموات
وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه. ويذكر أهل العراق فيقول: « أهل
فسق وفجور، وخمور وماخور ». فيبلغهم من يحضر المجلس من أهل خراسان.
فسكتب بذلك إلى محمد الأمين عيونُه، فجزع لذلك وأراد التنصل من التبعة
وإسقاط الحجة، بأن يظهر غضبه على الشاعر ويُنزل به نقمته. وكان قد
اتصل به عنه أبياتٌ أحفظته عليه، منها قوله وهو سكران:

إسقينها يا ذفافه مِرَّةَ الطعم سُلَافه
ذَلَّ غنْدى من جفاها لرجاء ومخافه
مثل ما ذَلَّتْ وضاعتْ - بعد هارون - الخلافه

ومنها قوله مفاخرأ وهو بحال من العسر والحاجة:

وقد زادنى تيمها على الناس أنى أرانى أغنائهم وإن كنتُ ذا الحُسْرِ
ولولم أنل فضلاً، لكانت صياتى قَمِي عن جميع الناس حَسْبِي من الفخر
ولا يطمع من فى ذلك مِنى طامعٌ ولا صاحب التاج المحجَّب فى القصر
فبعث الأمين بإحضاره ، وعنده أعدى أعدائه سليمان بن جعفر بن أبى
جعفر . فلما أحضر الشاعر ومثَّل بين يدى الخليفة بادره : « يا بن اللخناء
العاهرة » وشتمه أفتح الشتم . وقال : « أنت تتكسب بشعرك أوساخ أيدي
جميع الناس ، ثم تقول (ولا صاحب التاج المحجَّب فى القصر) . أما والله لانيت
مِنى شيئاً أبداً » . فقال سليمان : « وهو والله يا أمير المؤمنين من كبار الثنوية »
فقال الخليفة : « أيشهد عليه بهذا أحد ؟ » فاستشهد سليمان جماعة شهدوا عليه
بالشرب والفسق . فوجه به الخليفة إلى الفضل بن الربيع وأمره بحبسه مع
قوم كانوا يتهمون بالزندقة .

وطال حبسُ أبى نواس فى المطبق ، حتى يئس من عفو الأمين ، ولم تبق
له بارقة أمل فى الخلاص إلا بدخول المأمون . وذلك فى قوله :

ياربَّ إن القوم قد ظلمونى وبلا اقرارٍ معطلَّ حبسونى
والى الجحود بما عليه طويتى بالزور والبهتان قد نسبونى

ما كان إلا الجري في ميدانهم في كل خزي ، والمجانة ديني
لا العذر يُقبل لي ، ويفرق شاهدي منهم ، ولا يرضون خلف يميني
أما الأمين فلست أرجو دفعه عني ، فمن لي اليوم بالأمون !
وكان للفضل بن الربيع خال يعرض أهل السجون ويتفقدهم
ويتعهدهم ، فدخل إلى حبس الزنادقة الذي فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ،
فقال له : « يا هذا أنت مع الزنادقة ؟ » . فقال له أبو نواس : « معاذ الله » .
فقال له : « فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ » . فقال له : « أنا آكل الكباش
بصوفه » . فقال له : « فلعلك تعبد الشمس ؟ » . فقال له : « إني لأتجنب القعود
فيها بغضاً لها » . فجاء إلى الفضل فقال له : « يا هذا ! لا تحسنون جواراً نعم الله
بحبس الناس بغير جرم » . فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخره الخبر .
فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره وشفع إليه فيه . فدعا به ، وأمر
باستحلافه وأخذ العهد عليه أن يجتنب الخمر والسكر .

ولزم أبو نواس بيته من خوف المطبق ، وظلّ على ذلك أياماً يظهر التوبة
ويتذرع بالنسك والتقوى . وإلى القارئ الصورة التي يمثّلها لنفسه كما يريد
الخليفة ووزيره على أن يكون ، وهي - وان تكن صورة ناسك مبتلي -
لا تكاد تخفي ما وراءها من التهم على النسك والسخر بالناسكين :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني الذ
سك وعودتني ، والخير عاده
فارعوى باطلي ، وأقصر حبلي
وتبدلت عفة وزهاده
لوتراني ، ذكرت للحسن البه
مرى في حسن سميته ، وقتاده

المساييحُ في ذراعَيْ ، - والمص
وإذا شئت أن ترى طرفهَ ته
فادعُ بي - لا عدمتَ تقويمَ مثلي -
ترَ أثرًا من الصلاة بوجهي
لو رأها بعضُ المرائين يوماً
ولقد طال ما شقيتُ ولكن
وكان الفتيانُ يتعرضون لأبي نواس للشرب معه ، وهو يستعفيهم ويعتذر
إليهم . فقال بعضهم : « وإن لم تشرب فأنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر
مجلسَ شرايهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزّمون عليه ويستهوونه :
« ألم ترَ تخَ لها ؟ » . قال : « نعم والله ! ولا سبيل إلى شربها » وأنشأ يقول :
أيها الرأحمان باللوم ، لوما لا أذوق المدامَ الا شمياً
نالني بالملام فيها إمامٌ لا أرى في خلافه مستقيماً
فاصرِّفاها إلى سواي ، فاني لستُ إلا على الحديث نديماً
إن حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشمَّ النسيماً
فكأنني وما أحسنُ منها - فعدِّي يزِين التحكيميا
كلَّ عن حملهِ السلاح إلى الحرب فأوصي المطيق ألا يقبى
على أن النواسي لم يلبث أن غلب عليه طبعه ونازعته إلى الخمر نفسه .
وكيف يتنكر لها أو يسلو عنها وإنه ليحسن بينه وبينها نسباً شابكاً ورحماً
ماسّة ، فهو تارةً ابنها ، وهي تارةً شقيقةٌ روحه :

أنا ابن الحمر، مالى عن غذاها — إلى وقت المنية — من فِطامٍ

لأُمِّي في المدام — غيرَ نصحٍ — لا تلمنى على شقيقة روى

فعاد التائب السكّير لسيرته الأولى في المواخير، عاكفاً على بنت الدنان
من جديد عكوفاً ما عليه من مزيد، ووقف عليها أوقاته يُعَوِّضُ منها ما فاتته .

ورُفِعَ ذلك إلى الخليفة فأمر به نُحْبَسَ ثلاثة أشهرٍ . وقد حكى صاحبُ

الشرطة أنه لما حُبِسَ أبو نواس ، كان أكثر من يزوره في حبسه المرُودُ

والشبان ، والحمارين ، وأصحاب الربيعة . ويقول صاحب الشرطة إنه عرف

منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك ، فجعل عليهم الضرائب ، ثم فَنَدَ

ذلك لما أطلق الشاعر لتفرّتهم : وأخيراً دعا الخليفةُ به وحوله بنو هاشم

وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف يهدده بالقتل . فأنشد أبو نواس هذه

الآيات مستعظفاً :

تَذَكَّرْ أَمِينَ اللَّهِ — وَالْعَهْدُ يُذَكَّرُ

وَنَثْرَى عَلَيْكَ الدَّرَّ ، يَأْذُرُّ هَاشِمًا !

أَبُوكَ الَّذِي لَمْ يَمْلِكِ الْأَرْضَ مِثْلَهُ

وَجَدَّكَ مَهْدِيُّ الْهَدْيِ ، وَشَقِيقَهُ

وَمَنْ مِثْلَ مَنْصُورِيكَ : مَنْصُورِ هَاشِمٍ

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْمِي بِسَهْمِيكَ فِي الْعَلَا

تَحَسَّنْتَ الدُّنْيَا بِوَجْهِ خَلِيفَةٍ

مُقَامِي وَإِنشَادِيكَ وَالنَّاسُ حُضْرُ

فِيَا مَنْ رَأَى دُرًّا عَلَى الدَّرِّ يُنْثَرُ !

وَعَمَّكَ مُوسَى الصَّفْوَةُ الْمُتَخَيَّرُ

أَبُو أَمِّكَ الْأَدْنَى أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ

وَمَنْصُورُ قَحْطَانَ إِذَا عُدَّ مَفْخَرُ

وَعَبْدُ مَنْفَافِ وَالِدَاكَ وَحَمِيرُ

هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ الدَّهْرُ مَقْمَرُ

أيا خير مأمولٍ يُرَجَى : أنا امرؤ أسيرٌ رهينٌ في سجونك مُقْبِرٌ
مضت لي شهورٌ - مذحُبتُ - ثلاثةٌ كأنني قد أذنبتُ ما ليس يُغفر
فإن كنتُ لم أذنب ، فقيم حبستني وإن كنتُ ذا ذنب فعفوك أكبر
فقال له الخليفة : « فإن شربتها؟ » قال : « دمي لك يا أمير المؤمنين »
نفلي سبيله .

والظاهر أن تهديد الخليفة في هذه المرة قد أفرعه وروّعه . فقد ظل زمناً
يرفض الخمر ، وكما هم بالخالفه ذكر موقفه بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :

أطع الخليفةَ واعصِ ذا عَزْفٍ وتتحَّ عن طَرَبٍ وعن قَصْفِ
عينُ الخليفةِ بي موكَّلةٌ عَقَدَ الحِذَارُ بَطْرَفَه طرفي
صحَّت علانيتي له ، وأرى دينَ الضميرِ له على حَرْفِ
فلئن وعدتكَ تركها عِدَّةً إني عليك لخائفٌ خُلْفِي

وهو يذكر في أسفٍ لا يخفى كيف كان يغدو إلى حوانيت الخمر فيملاً
زقه من صفوها قبل الزقاق ، ويجوز قبلها قَصَبَ السباق . ولكن ما الحيلة
وهذا أمر ملك العراق ، قد جعل هلاكه في كفِّ ساقٍ :

أعاذلُ ، لا أموت بكفِّ ساقٍ ولا آبي على ملك العراقِ
هجوتُ له التي عنها نهاني وكانت لي كمسكة الزِّمَامِ
وقد يغدو إلى الخانوتِ زِقِي فياخذ عَفْوَهُ قبل الزِّمَامِ
وكنَّ إذا نزعن إلى مداه حوى - قدَّمتها - قَصَبَ السباقِ

على أن الشاعر وإن يكن قد أفلح عن الخمر لم يكف عن ذكرها واللهج
بأوصافها :

لولا الأميرُ ، وأنَّ العذرَ منقصةٌ والعار بالعذر عندى أقيحُ العارِ
جاءت بخاتمها من بيت خمار رُوحٌ من السكرِ في جسمٍ من القارِ
فالريحُ ريحُ ذكيِّ الأذفرِ الدارى والبردُ بردُ الندى ، واللون للنارِ
ولكن هذا لم يُرضِ أولى الأمرِ ، فشددوا عليه في تركِ التغيُّ بالخمِرِ .
فكأنما قُضى على هذا الثائر على مذهب العرب في الشعر، الساخر من أوصافهم
للطول والقفر ، أن ينعتهَا وإن يكن كارهاً لها :

أعيرُ شعركَ الأطلالَ والدِّمَنَ القفراً فقد طال ما أزرى به نعتك الخمرِ
دعاني إلى وصفِ الطولِ مسلطاً تضيقُ ذراعى أن أجوزله أمراً
فسمعاً أميرَ المؤمنينَ وطاعةً وإن كنت قد جشمتنى مركباً وعراً

ومع هذا فقد كان الشاعر يحتال لنعتهَا ، ثم كان لا يعدم في مجلس
الشراب بعضَ التعزية عنها ، فثمة - على الأقل - الساق المليح الغرير ، إذا هو
طاف بالخمِر فلم يشربها من يديه ، شربها لذيدة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذلُ ، أعتبتُ الإمامَ وأعتبا وأعربتُ عما في الضميرِ وأعربا
وقلتُ لساقينا «أجزها» فلم يكن ليأبى أميرُ المؤمنينِ وأشربا
فجوزها عني سلاقاً ترعى لها إلى الأفقِ الأعلى شعاعاً مطمئناً
إذا عبَّ فيها شاربُ القومِ خلتهُ يُقبَلُ في داجٍ من الليلِ كوكباً

يدور بها ساق أغنّ ترسى له على مستدار الأذن صدغاً معقرباً
سقامهم ومناني بعينيه منية فكانت على قلمي الذئ وأطيبها
وكان شاعرنا مسرّافاً مضياعاً لا تحتوى يده على عطاء مهما جلّ حتى
يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حمل ما حمل إليه أولاً وآخرأ من جوائز ممدوحيه
من الملوك والأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من
صِلات محبي منادته من السراة وأهل النعمة ، ولكنه لم يدخر من ذلك كله
شيئاً . وياليتيه وقف في غرامه بالخمر واستهتاره بها عند إتلاف ما لديه فيها ،
بل صار يزرى على من لا يفعل فعله من عشاقها وخاطبيها :

يا قهوة حُرمت إلا على رجلٍ أترى فأتلف فيها المال والنسبا
فلا غرو، وقد نزت الخمر ما عنده من مال، أن تشتدّ به الحاجة ويعاني
جهدَ الحال ، لا سيما والخليفة غيرُ مقبل عليه كما كان . فهو يتوجه إلى آل
الفضل بن الربيع بالسؤال بعد السؤال يستمنحهم ويستدرّ عطاءهم فيبطئون
عنه . ويشكو الشاعر من خلف الوعد وكثرة المطلب ، فيثقل عتابه على نفوسهم
ويُلقي في الحبس . فيكتب الشاعر الى الفضل في حبسه معتذراً إليه ذا كراً
برّه طالباً عفوه :

أبا العباس ، ما ظنني بشكري - إذا ما كنت تعفو - بالذم
وكنت أبا، سوى أن لم تلدني - رحماً أو أبرّ من الرحيم
لئن أصبحت ذا جُرمٍ عظيمٍ - لقد أصبحت ذا عفوي كريم
ويتشفع بجمعفر أخى الفضل قائلاً :

فلا تجحدوا بي ودَّ عشرين حِجَّةً ولا تُفسدوا ما كان منكم من الفضل
وفيا يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار إلى العباس بن
الربيع في حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لعمرك ما (العباس) من ولد (الفضل) فِيرَجِي لِعُرْفِ أَوْ يَغَارُ عَلَى بَدَلِ
فَتَى كَلَّمَا نَادَيْتَهُ لِمَلَّةٍ دَعَوْتَ مَثَالًا لَا يُمِرُّ وَلَا يُحَلِي
فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فأمر بكر بن المعتز ، فأخذه وضربه وجبسه
وقيده وأسلمه إلى سجانٍ فظ غليظٍ كان على المطبق اسمه « سعيد » فضيق
عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وأنفذها إلى بكر فيها :

وَقَيْتَ بِي الردى ! زِدْنِي قُبُودًا وَثَنٌ عَلَى سَوْطًا أَوْ عَمُودًا
وَوَكَّلْ بِي وَبِالأَبْوَابِ دُونِي مِنَ الرقباءِ شَيْطَانًا مَرِيدًا
وَأَغْفِ مَسَامِعِي مِنْ صَوْتِ رَجَسٍ ثَقِيلٍ شَخْصُهُ يَدْعَى « سَعِيدًا »
فقد تَرَكَ الحَديدَ عَلَى رِيشًا وَأَوْقَرَ بَعْضَهُ قَلْبِي حديدًا
فضحك بكر من الأبيات ، ووقف الفضل عليها ، فأمر بإطلاقه فخرج
وهو يقول :

يَافِضْلُ قَدْ أَوْسَعْتَنِي عِظَةً مَا بَعْدَهَا غَلَطٌ وَلَا سَهْوٌ
ولما كانت الفرصة مؤاتية لكل مضطفن على أبي نواس ، موتور
بهجائه له ، أن يسعى به لدى السلطان ويرميه بالحق أو بالباطل بإحدى
موجبات الحدود ، فقد كثر ما كان يرفع إلى الأمين من الاتهامات ، ينسبون
فيها الزندقة والكفر إلى الشاعر ، حتى صحَّ عزُّمُهُ على قتله ، وجعل أمر ذلك

الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجداً عليه . فأتى بالشاعر وقال له : « رُفِعَ
الى أمير المؤمنين أنك زنديق » . فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضل
يكرّر عليه ، ثم أعاده الى الحبس . وبقى أبو نواس في المطبخ دهرأ وهو
يتربّب الموت بين لحظة وأخرى ، وقد تخلى عنه أصدقاؤه وثقاته ، وذلك حيث
يقول :

أَخْلَافِي أَذَمُّكُمْ إِلَيْكُمْ وَكُنْتُ بِمَدْحِكُمْ قَمِيماً خَلِيقَا
إِذَا اسْتَبَطَأْتُمْ عَنَّمْتُمُونِي وَقَلَّمْتُمْ إِنِّي فِيهِ لَذَاكُ ضَيْقَا
فَأَقْسَمُ لَوْ تَكُونُونَ الْأَسَارِي وَكُنْتُ أَنَا الْخَلَى وَالطَّلِيقَا
إِذَا لَجَّهْتُمْ فَوْقَ الْجَهْدِ حَتَّى أَطِيقُ خِلَاصَكُمْ أَوْ لَا أَطِيقَا
فَلَا - وَاللَّهِ - أَذْخَرَكُمْ هَجَاءً وَشْتَمًا مَا بَقِيَتْ - وَلَا عَقُوقَا

وأخيراً كلم الفضل الخليفة فيه ، فأطلق سبيله . فخرج وهو لا يصدق
أنه قد أطلق ، ومضى الى أهله يقول :

أَهْلِي ، أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْقَبْرِ وَالنَّاسُ مُحْتَبَسُونَ لِلْحَشْرِ
لَوْلَا أَبُو الْعَبَّاسِ مَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَى وُلْدِي وَلَا وَفَرِي
وكتب الى الفضل :

مَا مِنْ يَدٍ فِي النَّاسِ وَاحِدَةٍ كَيْدِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَوْلَاهَا
نَامَ الثَّقَاتُ عَلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَسَرَى إِلَى نَفْسِي فَأَحْيَاهَا
قَدْ كُنْتُ خِفْتُكَ ، ثُمَّ أَمْنِي - مِنْ أَنْ أَخَافُكَ - خَوْفُكَ اللَّهُ
عَفَوْتَ عَنِّي عَفْوً مُقْتَدِرٍ وَجَبَّتْ لَهُ نِقْمٌ فَأَلْعَاهَا

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدمت ونزلت حلوان ، وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأيمن وهزيمتهم في كل حال . وأيقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط في يدي الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة إلى قواده وبطائه يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أخضروني غناءكم كما أخضرت خراسان عبد الله غناءها » ، ويستحث فيهم قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله ، لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة وقرأت كتب حروبها وقصص من أقام دولها ، فما رأيت في ذلك كله حديثاً لرجل منهم كهذا الرجل في إقامته وسياسته . وقد قصد إلى واجترأ على ، فهاتوا اليوم ما عندكم » .

ولكن جيوش محمد ما برحت تنهزم بين يدي طاهر ولم تقم لها قائمة .

وأراد بعض الأمراء أن يستجيش للأيمن جنوداً من الشام والجزيرة ممن أدبهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى سوء حظ الأيمن إلا أن تقوم فتنة فيهم بين الأبناء الجزريين وأهل الشام الزواجيل . فانفض أهل الشام إلى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسين بن علي بن ماهان في عسكره بالرحيل قاصداً بغداد ، فلما وصلها خلع الأيمن في ١١ رجب سنة ١٩٦ وحبسه وأعلن البيعة للمأمون . ولكن كبار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسروه ، وأطلقوا الأيمن ، وأعدوه في مجلس الخلافة .

وبينما كانت الأمور في بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام وإحكام التدبير . وقد أرسل

من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور
والمدن بشرقي بغداد ، وتحول طاهر إلى الأهواز والبصرة في غربتها ، ليكون
المهجوم على بغداد من جهتين .

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد، فحوصرت من عدة
جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ، ونصبت عليها المنجنيقات والعرادات
وصارت المدينة ترمى في كل وقت بالحجارة . فكثرت الهدم والتحريق ، وخربت
الديار ، وعفت الآثار ، واتهبت الأموال وغلت الأسعار . وبلغت الشدة
بالناس كل مبلغ . وانفض عن الخليفة المنكود الحظ طلاب الجاه وأرباب
المراتب من خاصته ، والتجار ، وأصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب
أن الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقة والعيارين وأهل
السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، في أوساطهم
التبايين والمآزر ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ،
ودرقاً من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل . وكان على
كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة
نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون
مركباً للرؤساء يركبونهم بالقاود واللجم والمذاب . وعلى هذه الحال كان يتقدم
الرؤساء منهم والمقاتلة إلى الحرب مع أصحاب الخيول القره والجواشن والدروع

والتجافيف والسواعد والدرق التُّبَيَّة ، فهؤلاء عراة رهؤلاء بكامل العدة ، فكان يُقتل منهم الخلقُ الكثير .

ولقد سجّل هذه الأحداث وقعةً وقعةً في قصائد عدة ، زميلُ أبي نواس ومواطنه البصري ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزي الوراق ، وهو على مجونه قد اشتغل بهذه الخطوب واهتم لها .

وأما أبو نواس فإنه في وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له همٌّ ، وقد شغل عنه أولو الأمر ، إلا أن يستأنف حياة الفجوز والسكر . وإذا كان لم يفكر في خيانة الأمين والانحياز إلى خصمه ، فإنه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفاً أو يعتقل رجلاً في القتال عنه . وإنما كان ميدانه مجلس اللهو ، وآلات حربيه مقارعة الأقداح والترامى بالزهر ، وقد استبدل بهيعة الوغى وسفك الدماء صوت المعازف وحمرة الخمر :

إذا عبأ أبو الهيجا * للهيجا فرسانا

وسارت راية الموت أمام الشيخ إعلانا

وشبّت حربها واشتعلت تلهب نيرانا

جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا

وقدّمنا مكان الرمح والمطرّد ريحانا

فعدت حربنا سلماً وعدنا نحن خلانا

بفتيان يروون التقة ل في اللذة قرّبانا

إذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا

وأشأنا كراديساً من الخيري أوانا
وأحجارُ المجانيق لنا تفاحُ لبنا
ومُنشأ حَرِّ بناساقِ سبأ خمرأ فسقانا
يحث الكاس حتى يدا حق الآخر أوانا
تري هذاك مصروعاً وذا ينجرتُ شكرانا
فهذي الحرب، لاحرب تغم الناس عدوانا
بها تقتلهم ، ثم بها ننشرُ قتلانا

وهذه مقابلة أخرى من مقابلاته بين الحربين :

أحسن من رمي بعراةٍ ومن قذافِ المنجنيقاتِ
مُسامرٌ في مجلس حاضرٍ أمام أعوادٍ وناياتِ
وقينة تشدو على صحبها تعطيك أسباب اللذاتِ
فذاك يسلى الهم لا معرك يرمى بأحجار المنياتِ

وإذا كان هذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأياً يرتئيه ومذهباً في التفكير
يذهب إليه ، وإنما هو شيء في أصل تكوينه وتركيب طباعه . وإليك عذره
وهو لا شك أدري بنفسه :

يا «بشر» مالي والسيف والحرب وإن نجمي للهو والطرب
فلا تنقُ بي فانتى رجل أكرم عند اللقاء والطلب
وإن رأيتُ الشراة قد طلعا أجمتُ مهري من جانب الذنب

ولست أدري ما الساعدان، ولا الترس، وما بيضة من اللبب
همي إذا ما حروبهم غلبت أي الطريقين لي إلى الهرب
لو كان قصفاً وشرباً صافيةً وجدتي ثم فارس العرب
وقد روى إبراهيم الطبري أنه كان في أيام الفتنة جالساً على بابيه، إذ مرَّ به
أبو نواس وقال: «قم حتى نأخذ من شأننا» فدخل فجعل يشربان. وأقبل
الداخل بعد الآخر يدخل إليهما فيقول: «كان كذا وكان كذا» فأنشأ أبو نواس:

عندي للخمرة أسماء لها دواء لها داء
يُصلحها الماء إذا صفت وربما أفسدها الماء
وقائل كانت لهم قصة فيها أحاديث وأنباء
قلت له: «أي امرئ جاهل فيك عن الخيرات إبطاء
اشرب ودعنا من أحاديثهم يصطلع الناس إذا شاءوا»

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين: المأمونية، والحمدية، أربعة عشر
شهرًا. وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله، وصبر الفريقان جميعًا. وانقطعت
الموارد بالأمين في أرزاق الجند، فضرب الآنية من الذهب والفضة سرًا وأعطى
رجالها. ثم شغب عليه من لم يعطهم من قاداته وجنده وخذلوه، واقتصرت
حامية الخلوغ وجنده على العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البوارى ورماح
القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر. وكانوا في حربهم
كالشياطين، وقد اتخذوا تحت آباطهم الخالي فيها حجارة وقطع آجر يتدرون

بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعمّ في أصحاب طاهر ،
والفرق والحريق في العراة أصحاب المخلوع . واشتدّ الأمر بالناس أي اشتداد
وهم تحت وابيل المنجنيقات والعراادات ، ينتقل أهل السكك والدروب
من موضع إلى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون
على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه . وكثر القتل في الطرق
والشوارع . يُنادى هذا « يا للمأمون » ، وهذا « يا للمخلوع » ، فيقتل
بعضهم بعضاً . وانتهت الدور ، وأعمت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز
الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة ، وكبير وصغير بما
يسلم معه ، إلى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله . وشدّ طاهر النكير وضيق
الخلق . وأقبل يقطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز إليه من يصير
في حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه في حربه . واشتدّ الأمر على محمد
المخلوع وجدّه به . فنصح إليه من نصح بالتسليم . وألحّ عليه الصعاليك من
أصحابه بالخروج من المدينة بالليل الى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار
الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة
حتى أساموه الى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم
حتى قتلوه .

وهنا انقلب الكثيرون من مادحي الأمين في أيام عزّه ، إلى القدح فيه
والدشنيع به وتعيد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك الى الغالب ويخطبون

ودّه . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل
كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثلاً على الوفاء ، كما يشهد كل بيت من
هذا الرثاء :

طوى الموت ما بيني وبين محمد	وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل ، إلا عبرة تستديمها	أحاديث نفس مالها الدهر ذباكر
لئن عمّرت دور بمن لا أودّه	لقد عمّرت ممن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده	فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

الْحَمَامَةُ

عاش أبو نواس ماعاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه إلى إصابتة اللذة والتمالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدم السن وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظل على حاله من الاخلاعة والمجون إلى أن بلغ الخمسين وإلى ما بعد الخمسين . وإذا ذكرنا أنه كان ناعماً نحيل البدن تعوزه الضلعة ومثانة التركيب منذ حدثته ثم أضفنا إلى ذلك علو سنه وكهولته ، لم نصدق أن استهتاره باللذات وانغماسه فيها مما ينسب إلى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما إذا تدبرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدوداً من النساء . فالأمر إذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنياً ، أو - إذا شئنا اصطناع لفة الفلاسفة - كان فجوراً بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدق كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو - مهما يقل عن نفسه - لم يكن أقبح أهل الأرض عملاً ، وإن يكن من أقبحهم قولاً :

عَفَّ ضَمِيرِي ، هَازِلٌ لَفْظِي ، وَفِي نَظَرِي عَرَامَةٌ

ولقد كان في وسع أبي نواس أن يتستر ويتكتم ويستعمل التقيّة والنفاق

كغيره ، ويُصِيب في السرِّ والخفاء من اللهو وألوان اللذات ما يشاء . ومن
الحقِّ الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيراً إلا في تسترهم
ومجاهرتهم ، و سرِّهم وعلايتهم ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى
إلى ولده :

إنصبُ نهاراً في طلاب العِلا	واضربْ على فقدِ لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً	وغاب فيه عنك وجهُ الرقيبِ
فبادر الليلَ بما تشتهي	فإنما الليلُ نهارُ الأريبِ
كم من فتى تحببه ناسكاً	يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيبِ
ألقي عليه الليلُ أستاره	فبات في لهوٍ وعيشٍ خصبِ
ولذة الأحمق مكشوفةٌ	يسعى بها كلُّ عدوِّ مرئيبِ

ولكن أبانواس كان لا يعرف اللذة إلا في المجاهرة بها ، وإعلام القاصي
والداني بشئها ، مع المبالغة والتهويل في أمرها ، كأنما اللذة ليست هي التي
تعنيه ، وإنما استهتاره بها هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير
هنا إلى أن هذه الآفة تكون أحياناً من علامات مُرَكَّبِ النقص في الضعاف
القاصرين من أهل الإباحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذاتِ منهتكِ السِّترِ	وأفضتُ بناتِ السرِّ مني إلى الجهرِ
وهان على الناسُ فيما أرومه	بما جئتُ فاستغفنتُ عن ظاب العذرِ
ألا فاستقني خمراً ، وقل لي هي الخمرُ	ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
وبحْ باسمِ منْ أهوى ودعني من الكُفنى	فلا خير في اللذاتِ من دونها سترِ

أطيب اللذات ما كان جهاراً بانفصاح
والقارئ لمجون أبي نواس ينتهي لا بحالة إلى أن الشاعر يعترف على نفسه
بأكثر مما يقترف، ذاهباً مع خياله المريض إلى أبعد ما تذهب إليه نزغات الشهوة،
مستغرقاً في تصور ما ليست له عليه قدرة. وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة
يتعوض من مجزئه فيما بينه وبين نفسه، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لف
لغه من أبناء عصره. وأياً ما كان الحال، فقد مضى صاحبنا في غوايته،
ساذراً في جهالته، مستكثراً من الفضايح، يضع لهوه ولذته فوق كل اعتبار،
ولا يبالي ما يجب لسنة من الوقار.

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار
وكان كلما أدبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدم به العمر، تركزت كل
شهوته في الخمر، فاستهلك في شربها والعكوف عليها:
لم يبق لي في غيرها لذة كرخية في الكأس كالنار

قالوا: «شِطْتُ» فقلت: «ما شطت يدي

عن أن تحثني إلى فمي بالكأس

فالشيخ متعلق بها، مصرّاً عليها، غير آسٍ على شيء يفوته غيرها.
فهو شغل في الحياة وطليته، وهي ما بعد الحياة همه وموضع تفكيره
وموضوع وصيته:

خليلي بالله لا تحفرا لي القبر إلا بقطر بل

خِلَالَ الْعَاصِرِ بَيْنَ الْكُرُومِ وَلَا تُدْنِيَانِي مِنَ السُّنْبُلِ
لَعَلِّي أَسْمَعُ فِي حَفْرَتِي إِذَا عَصِرَتْ ضِجَّةَ الْأَرْجْلِ

على أن للشاعر مع هذا أبياتاً في الزهد لا نحسبها نظماً منافسةً لأبي العتاهية أو غير أبي العتاهية في هذا الباب من الشعر، وإظهاراً لاقتداره في كل غرض من أغراض النظم. وإنما الذي نراه، أنه كان في بعض هذه الزهديات صادقاً كل الصدق في شعوره، وأن شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المنساقين في حياة الفسوق والشرب، تتابهم في الحين بعد الحين فترات يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفراتهم، ولكنهم ماضون في ضلالهم لا يستطيعون عنه صبراً:

بَكَيْتُ ، وَمَا أَبْكِي عَلَى دِمَنِ قَفْرِ وَمَا بِي مِنْ عَشْقٍ فَأَبْكِي عَلَى الْهَجْرِ
وَلَكِنْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ نَبِينَا فَذَلِكَ الَّذِي أُجْرِي دَمَوْعِي عَلَى النَّحْرِ
بِتَحْرِيمِ شَرْبِ الْخَمْرِ وَالنَّهْيِ جَاءَنَا فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا بِكَيْتُ عَلَى الْخَمْرِ
فَأَشْرَبُهَا صِرْفًا وَأَعْلَمُ أَنِّي أُعْزَّرُ فِيهَا بِالثَّمَانِينَ فِي ظَهْرِي

فوقف هذا المدمن السكير في خمره، موقف المؤمن المغلوب على أمره، يشربها وهو عارفٌ بحق المعرفة ما يتعرض له من أجلها في الدنيا وفي الآخرة:

الرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهَا فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلْتِكَ الرَّاحُ أَوْزَارًا
يَأْمَنُ يَلُومُ عَلَى حَمْرَاءِ صَافِيَةٍ صِرْتُ فِي الْجِنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارًا
وَالْقَارِي زُهْدِيَانَهُ يَرَاهُ دَائِمَ التَّفَكِيرِ فِي الْمَوْتِ ، يَتِمَثَّلُ حِكْمَهُ الْجَارِي عَلَى

الأجيال والأشياء من قبلُ ومن بعدُ بغير انتهاء ، فيرى كلَّ جهدٍ الى ضياع ما دامت الغايةُ الفناء .

وتسلَّطُ فكرةُ الموت والشعورُ بفناء كلِّ شيءٍ ووشك زواله ، من الأمور التي قد تؤدي الى الزهد في نعيم هذه الحياة العاجلة ، كما قد تؤدي الى ضد ذلك تبعاً لمزاج الشخص وما رُكِبَ عليه طباعه . ولقد كان من شعور شاعرنا بقصرِ المدة التي للأحياء على هذه الأرض ، وتيقُّظِ حسِّه للأيام تعبر به سراعا ، وللعمر ينطوي بساطه تحت قدميه ، وعقدِ الحياة ينفرط بين يديه ، أن حَرَصَ على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رأيتُ الليالي مرصّدةً لمُدَّتِي فبادرتُ لَدَاقِي مبادرةَ الدهر

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى في زهدياته تغلب عليه زعته الحسية ، فإذا هو ذكر الموت والقبر ، اقترن ذكرها بما يتمشله تحت التراب من الوجوه الوضاء ذات السمِّ والرواء .

أياربَّ وجهٍ في التراب عتيقٍ وياربَّ حسنٍ في التراب رقيقٍ

وما الحى إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عميقٍ

وهو إذا زجر نفسه عن الهوى ، ووعظها بالشيب ، واستحشها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين إلا نساءها من الحور العين :

أيةُ نارٍ قدَحَ القادحُ وأى جِدِّ بلغ المازحُ

لله در الشيب من واعظٍ وناصحٍ لو حذر الناصحُ
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهجُ الحق له واضح
فاسمُ بعينيك إلى نسوةٍ مهورهنَّ العملُ الصالح
لا يجتلي الحوراء من خدرها إلا امرؤٌ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذى سيق إليه المتجرُ الرابع

ومن كان هذا مزاجه وهذه إرادة طباعه ، فكيف يُرجى له أن يزهد
ويتبتل ، ولا سيما إذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثل ما فى بغداد
وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به وصفٌ ولا يدخل تحت حصر :

قالوا « تنسك بعد الحج » قلت لهم « أرى ، وأرجو ، وأخشى طيزنا إذا
أخشى قضيب كرم أن ينازعى رأس القطار وإن أسرعتُ إغذاذا
ما أبعد النسك من قلب تقسمه قطربل ، فقرى بئى ، فكلو إذا
فإن سلمت - وما قلبى على ثقة من السلامة - لم أسلم ببغدادا

وإلى جانب هذه الغوايات الحسيّة غوايةٌ أدبيّةٌ ، إن جازت هذه التسمية
على حرص هذا الماجن على ما شاع له من شهرة وصيت فى القبايح والمنكرات .
لقبه أبو العتاهية فى المسجد وقال له : « أما أن لك أن ترعوى ؟ أما أن لك أن
تنزجر وقد بلغت من السن والعلم ما فى دونه يتعظ العاقل اللبيب ، وأنت
تعافر بنت الحان ، وتصبو صبوة الشبان ! » فرفع أبو نواس رأسه إليه
وهو يقول :

أُتْرَانِي يَا عَتَاهِي تَارِكًا تِلْكَ الْمَلَاهِي !

أُتْرَانِي مُفْسِدًا بِالنَّسِكِ بَيْنَ النَّاسِ جَاهِي !

والذي يقرأ عن أبي نواس مَارَكِبَ من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصي ، ويقرأ له شعره في المجون وقبح خروجه أحياناً على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرّض للقتل بجهد ، وما جرّه على نفسه من التعزير والضرب والحبس في المطبق ، وهو لا يُقَصِّر عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور أنه منكرٌ من الملاحدة المعطّلة افتتن بالنظر والفسكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائرٌ ماردٌ من العصاة العتاة على غرار إبليس ، يجترى اجترأه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصّى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمنٌ صدقٌ بقلبه . ولا نقول إنه لم يتشكك ، فقد عاش في عصرٍ من عصور الشك . ولكنه شكٌ من النوع الذي قد يعرّض المؤمن فلا يُخرجه إلى الإنكار ، ثم إن معظمه لا يعدو ما يجري عليه ظرفاء كلِّ عصرٍ من مخالفة العامة وإظهار الخروج على العرف ، يضاف إليه ذهابه مع الخلاعة والمجون إلى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه من كانوا يعدّلونه ويعيبون عليه مجونه رواياتٌ عدةٌ كلّها شاهد على إيمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول إذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله إنى لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يُفِرط على » ، وأرجو أن أتوب فيرحمني الله عز وجل .

وظاهر من هذا أن أبانواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصي وهو فارغ اليال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذى يستطيع تركها والاقلاع عنها التماساً لرضاه . وهى حال من التناقض توقع فى الحيرة ولا يتبين معها وجه الطريق . على أن العصر - بما كان شائعاً فيه من مذاهب الجدل والكلام - لم يعد ما يعالط به ويستند إليه ليمضى فى حياة اللذة التى كان عليها ، من غير حاجة إلى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الإيمان يكفى فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الإنسان ركناً من أركان الإيمان . والمؤمن الذى يرتكب الكبيرة لا يعدّ كافراً ، بل يقال عليه فاسق فى كذا من غير إطلاق ، وإذا كان غير معدود فى الكفار فهو لا يخلد فى النار . ثم إن الله لا يتخاف فى الثواب وعده ، لأن الثواب فضل فينبى الله به لأن فى خلقه نقصاً . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخاف ، لأن العقاب عدل والله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس فى الخلف فى الوعيد نقص . وفى ذلك يقول أبو نواس :

لا بأعمالنا نطيق خلاصاً يومَ تبدو السماتُ فوق الجباهِ
غير أننا - على الإساءة والتفريط - نرجو لحسنِ عفوِ الإلهِ
ولقد عارض الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الرأى أشدَّ المعارضة . ولعل لهم فى ذلك العذر ، لا كراهة لما ينطوى عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدي إليه من تهوين أمر المعاصى وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غادِ المدامَ وإن كانت محرمةً فلكبائر عند الله غفرانُ

وقد ختم أبو نواس إحدى قصائده في وصف الخمر ، وطروقه للخجارات ،
معرضاً ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو إبراهيم النظم ، لمعارضته
مثلهم لهذا المذهب في العفو عن مرتكب الكبيرة :

فَقُلْ لِمَنْ يَدْعَى فِي الْعِلْمِ فَلَسَفَةٌ : « حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرِيحًا فَإِنْ حَظَرَكَهُ بِالْدِينِ إِزْرَاءُ »
من أجل ذلك كان هذا العصر العباسي بما فيه من اللهو ، تروج فيه
مذاهب الإرجاء وخاصة فلسفة العفو^(١) . ولقد أكثر المجان الخلعاء من
الشعراء القول في ذلك ، وكادوا يتواصون بالاستكثار من المعاصي ليظهر
عفو الله أجل وأشمل :

تَكَثَّرَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالْغُ رُبًّا غَفُورًا
سَتَبْصِرُ - إِنْ قَدِمْتَ عَلَيْهِ - عَفْوًا ، وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا
تَعْضُ نَدَامَةً كَفَيْكَ مِمَّا تَرَكْتَ - مَخَافَةَ النَّارِ - السُّرُورًا
وَلَا جَرَمَ يَكُونُ أَشَدُّ الْقَوْمِ تَوْرطًا فِي الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي ، أَكْثَرَهُمْ تَوَجُّهًا
إِلَى اللَّهِ ، وَأَهْلَجَهُمْ بِذِكْرِ عَفْوِ اللَّهِ ، وَأَنْ عَفُوهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَمَا مِنْ
ذَنْبٍ مَهْمَا عَظُمَ إِلَّا وَعَفُوهُ أَعْظَمُ . وَلَا جَرَمَ تَكُونُ أَشْعَارُ أَبِي نَوَاسٍ فِي ذَلِكَ
فَوْقَ الْجَمِيعِ وَفِرَّةً وَحَرَارَةً لَهْجَةٍ :

يا كبير الذنب ، عفو الله - ه - من ذنبك أكبر
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدّر

ليس للمخلوق تدبيرٌ بل اللهُ المدبِّرُ
أعظم الأشياء في أصل غيرِ عفو الله يصغرُ
ولقد أثرت الحياةُ التي عاشها أبو نواس في صحته ، وفعلتُ فِعْلَهَا فِي
بَيْتِهِ ، فَدَبَّ الوهنُ إلى قوته وغاز معينِ شَرَّتِهِ ، وَرَثَ بُرْدُ شَبَابِهِ وَذَوَى
عَوْدُهُ ، وَبَادَرْتَهُ الشِيخُوخَةُ قَبْلَ الأَوَانِ ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ المَشِيبُ وَلا تَحِينَ مَشِيبُ :
شَيْبَ رَأْسِي المَوَى عَلَى صَغِيرٍ وَليس شَيْبِي مِنْ باطنِ السَّكْبَرِ

وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِّي كَمْ هِيَ ، لَمْ أَجِدْ للشيبِ عِذْرًا فِي النَزولِ بِرَأْسِي
وَلَمْ يَلْبَثْ أَبُو نَوَاسٍ أَنْ ضَعَفَ جِسْمُهُ عَنِ المَقَاوِمَةِ ، عَلَى مَا بِهِ مِنَ الحَيَوِيَّةِ
وَالرَّاحِ . فَجَعَلَتْ تَرادِفُ عَلَيْهِ الأَسْقَامُ والأَوْصَابُ ، وَهُوَ يَغَالِبُهَا بِالشَّرَابِ
وَيَحْمِلُ عَلَيْهَا بِاللَّهُوِ ، حَتَّى اشْتَدَّتْ بِهِ العَلَّةُ وَأَثْقَلَهُ المَرَضُ وَمَنَعَهُ عَنِ الحَرَكَةِ .
فَلَزِمَ المَسْكِينَ بَيْتَهُ ، وَقَضَى أَيَّامًا مُثَبَّتًا فِي فِرَاشِهِ لَا يَبْرَحُهُ ، عَمِيدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى
الجُلُوسِ حَتَّى يُعَمِّدَ مِنْ بَجْوَانِهِ بِالوَسائِدِ . وَكَانَ أَصْدَقَاؤُهُ يَعُودُونَهُ فِي مَرَضِهِ ،
فَيَجِدُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ أَسْوَأَ حَالًا مِنَ اليَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ ، مَنقُوفِ الوَجْهِ ، مُتَغَيِّرِ
اللونِ ، قَدِ بَرَى السَّقْمُ جِسْمَهُ ، وَأَذْهَبَ لَحْمَهُ وَأَوْهَنَ عَظْمَهُ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ صَاحِي
الذَّهْنِ مُتَنَبِّهِ الحِمْسِ ، لَا يَبْنِي يَنْظُمُ الشَّعْرَ وَيَغْمَغِمُ بِهِ فِي وَصْفِ حالِهِ ، وَيَكْتُبُ بِهِ
إِلَى أَصْحَابِهِ :

شِعْرٌ حَتَّى أَنَاكَ فِي لَفْظِ مَيِّتٍ صارَ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ وَقَفًّا

لو تأملتني وأبصرت وجهي لم تجد من مثالٍ رسميَ حرفاً
 نفسٌ خافتٌ ، وجسمٌ نحيلٌ أرمضته الأسقام حتى تعفَى
 ولم يلبث الحسن بن هانيُّ الشاعر الماخن الخليع أن طمى وعاجلته المنية .
 وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن
 في مقابر الشونيزي في التل المعروف بتل اليهود ، على شاطئ نهر عيسى ببغداد .
 وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازَعِنِكَ الزمانُ يا «حَسَنُ» نخب سهمي وأفلح الزمنُ
 لبيتك إذ لم تكن بقيتَ لنا لم تبقى روحٌ يحوطها بدنُ
 وبما يروى عنه في مرض موته أنه التفت ذات مرةٍ إلى عَوَّاده فقال:
 « لا تشربوا الخمرِ صرفاً ، فإني شربتها صرفاً فأحرقت كبدي » . وكان
 لا يكف في كلِّ مرةٍ - مع ضعفه وخفوت صوته - عن إنشادهم شعراً له بعد
 شعر ، يُظهر فيه التوبةَ ، ويطلب من الله الصّح والمغفرةَ :

دبّ في الفناء سَفْلاً وعُلُوّاً وأراني أموتُ عُضُوّاً فعُضُوا
 ذهبتُ شرّتي بجِدَّةِ نَفْسِي ، وتذكرتُ طاعةَ اللهِ نِضُوا
 ليس من ساعةٍ مضت بي إلا تقصّنتني بمرّها بي جزوا
 هُفَ نَفْسِي على لِيالٍ وأيّاً م سلكتهنَّ لعباً وهوا
 قد أسانا كلَّ الإساءة - يار ب - فصفحاً عنا إلهي وعفوا

وقد مضى بعضُ أصدقائه إلى بيته عقب وفاته ودَفَنه ، فدخل إلى سرقة
وثيابه لم تُحرك بعدُ ، فإذا كلُّ ما خلفه قَمَطَرٌ فيه دفاتر وجدادات قراطيس
فيها نسخُ أشعارٍ وغريب ألفاظٍ ، وزرْدٌ وشطرنجٌ وعودٌ وطنبور . فرَفَعَ
وسادته ، فإذا برقعةٌ مكتوبٌ فيها :

يا ربِّ ، إن عظمتُ ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنَّ عفوَّك أعظمُ
جألى إليك وسيلةً إلا الرجا وجميلُ عفوَّك ، ثم أنى مسلمُ .



ثبت المراجع

- | | |
|--------------------------------------|---|
| الكامل لابن الأثير | الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني |
| الفخري لابن الطقطقي | وفيات الأعيان لابن خلكان |
| مروج الذهب للمسعودي | أخبار أبي نواس لابن منظور |
| تاريخ بغداد للخطيب البغدادي | ديوان أبي نواس لجامعه حمزة الاصبهاني |
| تاريخ دمشق لابن عساكر | فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي |
| الولاية والقضاة للسكندی | معجم الأدباء لياقوت الحموي |
| معجم البلدان لياقوت الحموي | نزهة الالباب لابن الأنباري |
| البلدان لليعقوبي | المعارف لابن قتيبة |
| حديث الأربعاء للدكتور طه حسين بك | الفهرست لابن النديم |
| ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين بك | العقد الفريد لابن عبد ربه |
| حضارة الاسلام للأستاذ نخلة المدور | نهاية الأرب للنويري |
| الديارات النصرانية للأستاذ حبيب زيات | البيان والتبيين والحيوان للجاحظ |
| تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي زيدان | الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم |
| مجلة الهلال (العدد الخاص بأبي نواس) | الملل والنحل للشهرستاني |
| دائرة المعارف الإسلامية الخ . . . | الوزراء والكتاب للجهشياري |
| | تاريخ الأمم والملوك للطبري |

دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترصمها دائرة المعارف الإسلامية

أحمد التفتناوى . عبد الحميد بونس

أبراهيم زكى فورشير . حافظ جهول

تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

وصدر العدد السادس من المجلد السادس

الاشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥

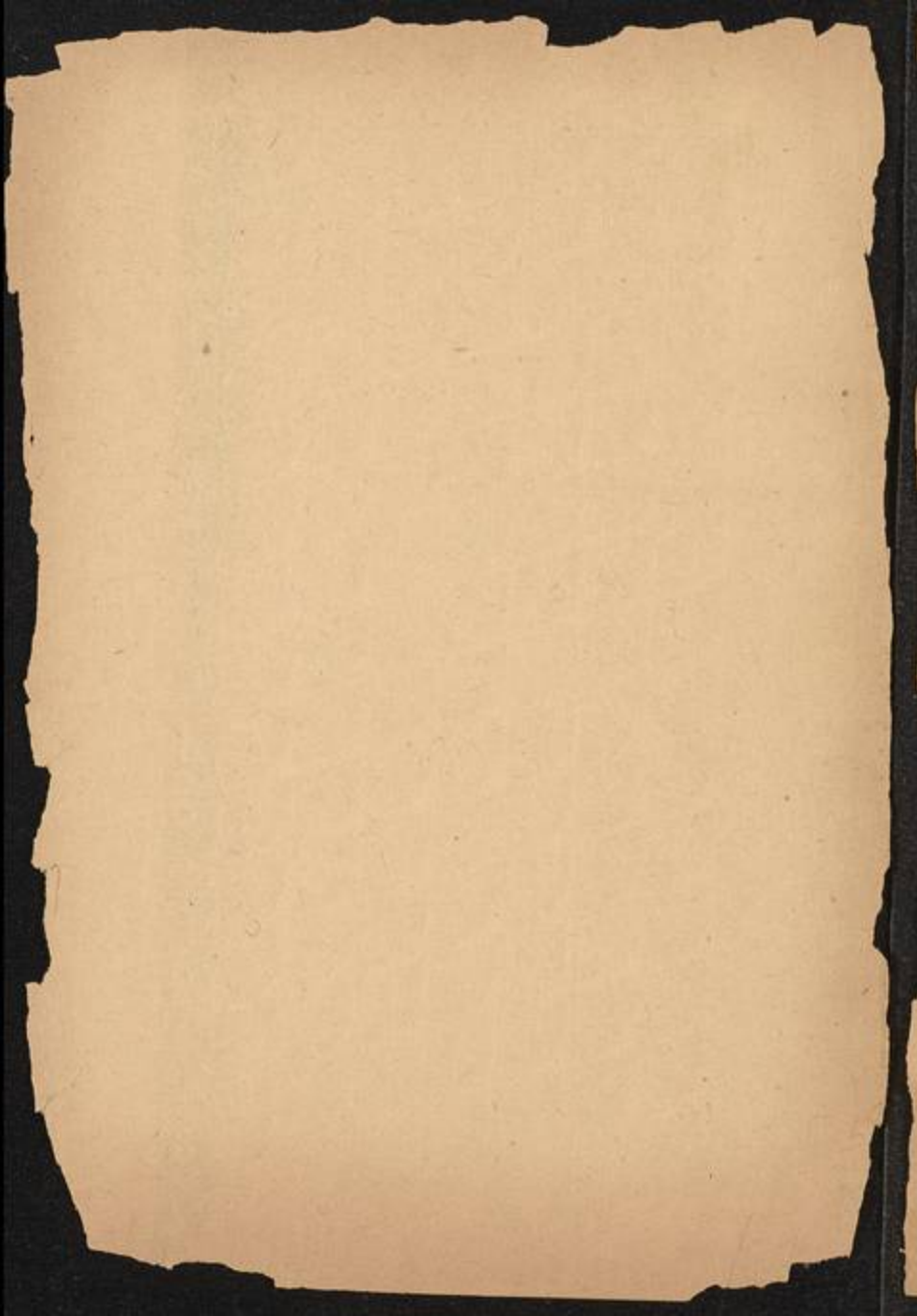
اعلام الاسلام

- ١ - عمرو بن العاص للأستاذ عباس محمود العقاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
- ٢ - منصور الأندلس « على أدهم » « ابريل »
- ٣ - بشار بن برد « ابراهيم عبدالقادر المازني » « مايو »
- ٤ - المعز لدين الله « ابراهيم جهول بك » « يونيه »
- ٥ - محمد عبده للدكتور عثمان أمين « يوليه »
- ٦ - أبو نواس للأستاذ عبد الرحمن صرقي « أغسطس »

الكتاب السابع

محمد علي الكبير للأستاذ شفيق غربال

يصدر في سبتمبر سنة ١٩٤٤



893.7Ab91

BS

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58954023

893.7Ab91 BS

Abu Nuwas.

CAP